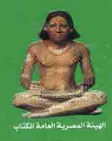
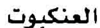
مكتبة الأسرة
القراءة للجميع
٢٠٠٩
سلسلة الأدب

العنكبوت

دبليو دبليو دبليو . دوت

دكتور عمرو عبد السميع





لوحة الغلاف من أعمال الفنانة : **آمل نصر**

عبد السميع ، عمرو

العنكبوت/ عمرو عبد السميع.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

٢٠٠ ص ؛ ٢٠ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠٠٩).

تدمك : ٠ - ٠٨٦ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ الأدب العربى ـ تاريخ ونقد.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٠٦٤ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978 - 977- 421 -086 - 0

ديوى ٨١٠,٩

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية **للقراءة للجميع** فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «**مصر السلام**». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة. فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلِّم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة **سوزان مبارك** عرفانًا بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها الجادة»، وأصبحت **القراءة للجميع** من أهم المشروعات الثقافية

العملاقة فى العالم العربى، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به فى بلاد أخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها فى إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة فى زمن تزحف فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذى يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذى يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعى، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع فى إصدار كتب الفنون المختلفة كالمسرح والموسيقى إيمانًا منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمئويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

٢٠٠٩

إهداء

إلى مصر...

إلى المصريين.. كيما لا يقعوا يوماً،

أسرى لخيوط أى عنكبوت!

عمرو

مقدمة الناشر

«العنكبوت .. دبليو دبليو دبليو. دوت»
نزيف الألم الضاحك

فى مساحته الإبداعية المختارة (الكوميديا السوداء) نفسها، وطريقته الفريدة ذاتها، فى خلط الأدب بالبحث، والرؤية بالرأى، والحقائق بالخيال، يقدم الأديب الدكتور «عمرو عبد السميع»، نصه الجديد (العنكبوت. . دبليو دبليو دبليو. دوت) كوصف اجتماعى، سياسى، ثقافى لمصر. . ساخر وأليم، ليس له شبيه!

إن المرء ليحار ـ حقًا ـ وهو يطالع سطور، هذا العمل (الذى جرت أحداثه بين مصر، والولايات المتحدة الأمريكية) حين يتأمل، قدرة هذا الكاتب الفذة، على استقطار الضحكات، من قلب مرارة الوجع، وملكاته العجيبة، فى التقاط تفاصيل التفاصيل، من مشهد الحياة، وعجنها، وتوظيفها، لخدمة ما يعتقده، ويؤمن به، والذى صاغ نفسه، فى شكل انحياز اجتماعى قاطع.

* * * *

نحن أمام عمل ـ يبدو، وكأنه قد أسس شكلاً جديدًا فى القص، يسانده احتفال كبير باللغة، التى تعد إنجازًا ـ حقيقيًا ـ فى هذا النص، بكل مستوياتها، سواء فى أصوات الأبطال، أو فى صوت رواية الأحداث، أو فى صوت الكاتب نفسه، حين يلخص تأملاته، ويبلور أفكاره، ويطرحها بشكل مباشر، شديد النفاذ، على الأرضية، أو الخلفية، التى تجرى ـ عليها أو أمامها ـ الوقائع. . وبما لايمكن فصله عن جوهر ومضمون الحدث الدرامى، أو آليات السرد السائدة. . وبطريقة تمهد للأحداث، وتختلط بها فى نسيج إبداعى واحد.

ونحن أمام عمل ـ يبدو ـ وكأنه، فى ظل كل هذا الهم، والاهتمام الوطنى الكبير، الذى يسيطر عليه، ويحتل كل سطر من سطوره، قد استدعى كل الموجودات حوله، ووظفها، لتعميق مجرى هذا الهم والاهتمام، وعلى رأسها الحضور الكبير، للأماكن، والشوارع، والمدن، حتى لتبدو، وكأنها ـ جميعًا ـ أبطال من لحم ودم، تتشارك مساحة هذا العمل مع شخوصه الإنسانية، والدرامية، وتفتح ـ لهذا النص الإبداعى ـ أبوابًا كبيرة جدًا، للاتصال بالواقع، والارتباط به، أو ـ كما يقول المؤلف ـ «الاشتباك معه»!

ونحن ـ أخيرًا ـ أمام نص، يبدو وكأنه ـ عبر نزيف الألم الضاحك ـ قد صمم على خلق، أو تعميق تيار من الوعى، ربما أحس أن أشكال الإبداع التقليدية، أضحت قاصرة عن إطلاقه بالقوة المناسبة، فلجأ إلى ذلك الشكل الذى تكرر فى أعمال «د.

عمرو عبد السميع» الأدبية، متنقلاً ـ فى تبادلية رائعة ـ بين مستويات خطاب متعددة، وكأنه يريد الاستيثاق، من أن رسالته قد وصلت، وحققت أثرًا، صممه، وأراده، منذ اللحظة الأولى!

* * * *

(العنكبوت ـ دبليو دبليو دبليو. دوت).. نص الدكتور «عمرو عبد السميع»، هو مرآة تعكس صورة مصر، فى لحظة، فريدة، ومفصلية، وهى لا تقنع بمجرد رصد، والتعبير عن الفُصام الاجتماعى، والسياسى السائد، بين مصر الفقراء، ومصر رجال الأعمال، أو مصر بقايا الطبقة الوسطى، ومصر طلائع القيم الجديدة أو ـ حتى تسجيل الخلط السائد بين قيم نظرية مجردة، كالوطنية، والخيانة... والزيف والحقيقة، والنبالة والسقوط!

ولكن هذه المرآة تطمح إلى أن ترصد ـ أيضًا ـ معالم المأزق الثقافى، والإنسانى، الذى يخيم على كل الساحات، ويطبع بخاتمه، كل لحظات الحياة التى نعيش.

وباستغراقه فى حزن عميق، وضحك كالبكا، كان «د.عمرو عبد السميع» يصف حدود هذا المأزق، ربما وصفًا غير مسبوق بالمرة.. ويدفع مجتمعه بخشونة كبيرة، وحب عظيم، تغلفهما روح تحريضية جسور ـ إلى أن يعيد النظر، والتأمل لتفاصيل ما يجرى فيه وحوله وأن يفحص ـ مليًا ـ كل ما يجرى، بين القاع والسطح،

بين القمة والسفح، وحتى نكتشف ـ جميعًا ـ حقيقة الظواهر التى تعوّدنا وجودها حولنا، والتعامل معها، دون أن نفكر، أو نسبر أغوارها.

الحقيقة..

الحقيقة كانت ـ فى هذا العمل ـ هدفًا يسعى من أجله الكاتب، ويبحث، وينقب.

الحقيقة.. هى التى كان يصطدم بها، ويمسك بتلابيبها ـ فى كل لحظة، ويصر ـ كما يردد دائمًا ـ أن «يطرحها للناس خبزًا يوميًّا على الرصيف»!

الناشر
محمد رشاد

1 المفكـــر

عبـده دســـوقى

« مِصـلُ الكميـلة لـى وطــن

وهــى الحمــى وهــى السكــن»

«منتهى الأرننه» !!

هذا هو التعبير الذى حارت فيه البرية، بحثًا عن تحديد، أو تعريف، يوضح المعنى، ويستجلى التفسير.

حتى اهتدينا ـ جميعًا ـ إلى أنه يعنى الحالة المزاجية، أو الشعورية، التى تسيطر على سلوك، وأفكار الزعماء العرب، حال استعراضهم لحرس الشرف!!

وبمنتهى الأرننة.. استعرض الكاتب الكبير «عبده دسوقى»، ساقىّ «عطيات» السمراوين، الكالحتين، اللتين تعلوهما طبقات لا بأس بها من القشف، وهى تتمدد، ثم تتقلب على الفراش، مثبتةً ناظريها عليه باندهاش، فى جميع الأوضاع، ومن كل الزوايا، إذ استقر فى يقينها أن عبده هو حالة بشرية، فريدة لا نادرة، وتحفة لم يجُدْ الزمان بمثلها منذ الحملة الفرنسية، أو منذ أيام أغنية «سنتين وأنا أحايل فيك» على أقل تقدير!!، ومن ثم، فإن النظر إليه ـ فى ذاته ـ هو عملية اكتشاف، وإبداع دائمة ومتواصلة، تطمح إلى الإحاطة بخصاله وسجاياه العجيبة، كما ترمى ـ من خلاله ـ إلى محاولة استيعاب ما استغلق على فهمها، وفكك تشفيره، ومن ثم تفسيره بالاستنتاج والاستشفاف، أو بالمخالطة والمعاشرة!

سنوات مضت، على لحظة اللقاء الأول بين «عطيات» و«عبده»، فى قليوب.. بلدتهما، التى تقف حَيْرى على مقربة من القاهرة، مجاهدةً لتحديد هويتها، مراوحةً ـ فى حال سيولة عجيب ـ بين كونها بلدة صغرى، أو مدينة كبرى، أو تقنع راضية بأن تكون قرية على قدر حالها.

وقتها كان دبلوم التجارة ـ الذى يعبتر أعلى درجة علمية حصل عليها أحد أفراد عائلة «عطيات» فى السبعة آلاف عام الأخيرة، قد ألقى بها ـ لتوّه ـ فى أحضان وظيفة بائعة فى فرع عمز أفندى المطل على شريط ومحطة القطار، فكأنها قد استقرت فى منتصف مسافة الحركة البندولية التى تمسك بتلابيب قليوب، مع كل قطار يمر فى أى الاتجاهين، لتشدها ـ تارةً ـ إلى مربع المدن الكبرى فتشمخ تياهة فخورة، بأنها تخلصت من عار كونها مدينة صغيرة، أو تجذبها ـ تارةً أخرى ـ إلى مربع القرى الشهيدة، لتنكس رأسها فى حال إجهاد اجتماعى، أو إحباط ثقافى عظيمين.

قليوب.. وقفت فى منتصف طريق كل شىء، فلا هى القاهرة، ولا هى بنها، بالضبط، كما وقفت «عطيات» ـ بدبلوم تجارتها ـ فى منتصف كل شىء، فلا هى دخلت الجامعة، ولمست بأطراف أصابعها أفقًا سحريًا جديدًا، لا تعرف إلى أين ينقلها أو إلى أين يقودها، ولا هى اكتفت بالابتدائية ـ الشهادة الشعبية ـ مثل صبيان عائلتها وبناتها.

كان على «عطيات» أن تلتحق بقاطرة أخرى تشدها إلى قُدَّام، أو

بروافع صناعية تدفعها الى فوق، وقد وجدت فى «عبده» هذه القاطرة أو تلك الرافعة، منذ اللحظة الأولى التى دلف فيها إلى عمر أفندى/ قليوب، ليشترى بيچاما كستور مقلمة.

فالبيچاما الكستور هى ـ فوق صفاتها الكسائية المعروفة ـ تعد علامة دالة على وضعية اجتماعية خاصة، وبالذات فى الوحدات شبه الريفية كقليوب، إذ أنها رداء الطلاب والأفندية، وهو يترافق عادة مع ارتداء شبشب كاوتشوك يتسمَّى بأسماء حريمية لافتة، يُرجَّح أنها كانت لزوجات صالحات ـ من فرط الولاء والطاعة ـ لا تبارحن أماكنهن تحت أقدام أزواجهن، ومن ثم أُطلق اسم كل منهن على الشباشب، تبركًا واقتداءً، وتكريسًا لهذه الروح الشرقية الأصيلة.

ثم إن البيچاما الكستور، والمقلمة بصفة خاصة، هى رداء التسكُّع فى أزقة البلدة أو مداخل البيوت التى لم يملِّطها أحد، أو شرفات المنازل التى عُلقت فيها حزم الثوم والبصل، أو تقدمتها حبال تعرض غسيلاً هفهافًا نديًا، يتراوح بين الجلابيب والملابس الداخلية.

ومن هذه المواقع الحاكمة، لوضعية البيچاما، يمسك أصحاب هذا الرداء بأكواب الشاى الثقيل الأسود، ويرتدون الطواقى المشغولة لفَرْد وكبس شعورهم، ويشرعون فى مراقبة الرائحين والغادين، وتبادل شائعات متوحشة عن إحدى البنات اللاتى فشلوا فى الحديث إليهن أو استمالتهن.

والبيچاما الكستور، في بعض حالاتها ـ أخيرًا ـ تعد بمثابة «التوكسيدو» الذى يحضر به الشباب جلسات السمر، على أى مقهى أو نصبة، أو تعريشة أو غرزة. . . أو ما تيسر، حيث تتواصل حلقات الدرس، والتعلُّم والإسهام فى اختراع وتشكيل عناصر المنظومة الخُلُقية الجديدة، الساعية إلى تسيُّد مناخ المحروسة. . . (الغِل والتآمر والاستكثار والاستئثار واغتيال المعايير)!!، حيث استحالت هذه الجلسات إلى ما يشبه الورش التجريبية، التى يختبر فيها الشاب مقولاته ومواقفه من الناس، والمجتمع، ويرسم فيها حدود تصوراته عن الآخرين، ويفرض على هؤلاء الآخرين الطريقة التى ينظرون بها إليه، إذ يتعلم الجميع ـ أيضًا ـ منطق الوحدانية، الذى يسقط تصورات أى إنسان على الواقع جبرًا واعتسافًا، كما لو كان يعيش وحده فى فراغ مطلق، وأبرز سمات هذا المنطق ـ بالقطع ـ هى المقاطعة، التى لا تسمح للآخر بالحديث، أو لا تسمعه أساسًا، والتى تتحدد فيها منزلة الفرد، ومدى شعوره بالانتصار، بقدرته على إخراس الآخر، والإرسال المتواصل، دونما أى استقبال.

«عبده دسوقى»، كان ـ وقتها ـ فى المرحلة المضبَّبة الغامضة، التى لم يتحدد فيها شكل، أو ملامح مستقبله بعد، إذ كان طالبًا، فى قسم الصحافة، بكلية الآداب، ولكنه لم يعبر ـ بعد ـ المسافة الفاصلة بين مربع، يتمنى فيه أو يتخيل أنه سيصبح صحفيًا يدوّى صيته فى الآفاق، ومربع أن يستحيل صحفيًا ممارسًا، ترصع حروف اسمه جدول المشتغلين، فى نقابة الصحفيين.

لكن مرور «عبده» بهذه المرحلة الغائمة، والعائمة، لم يمنعه أبدًا من أن يعيش ويتصرف ـ فى مجتمع قليوب ـ وكأنه كاتب كبير، بل ويتجاوز حدود الصلاحيات الاجتماعية، والمعنوية التى يتحرك فيها ـ بالفعل ـ كبار الكتَّاب.

لقد كان دخول «عبده» إلى أى سرادق فرح، أو ليلة من الليالى، كفيلاً بأن يذكر المطرب اسمه، ويوجِّه إليه التحية، وهو أمر عزَّ على كل أقرانه وزملائه، طلاب الكليات الأخرى، الذين لم تظهر لدى أحدهم ملامح الكاريزما الاجتماعية التى يتصف بها عبده، حين تدفعه لأن يتحدث، أو يتحرك. . . بمنتهى الأرننة!!

كان الصبيتة والمطربون فى أى سرادق يتفننون فى تدليل «عبده»، والإشارة إلى أهميته فيما يشمخ بأنفه، فى حال عبور سيكولوچى مذهل، يرى ما يحلم به ويتصوره، وكأنه واقع يتحقق ويتخلق على الأرض، ويستحيل تمثالاً لتخليد فكرة، أن حقائق الدنيا التى نعيش، هى أوهام نجح أصحابها، فى فرضها، بالقوة، أو الإقناع، أو بالإيحاء!!

الترحيب بعبده والتهليل له كان بمثابة التشريفة، أو «الفونفار» التى تعزف بمجرد أن يدلف إلى ساحة أية صهبة، مرتديًا ـ باعتزاز أثير ـ بيچامته الكستور المقلمة. . . (الجزمجية. . هما دول. . والبوهيجية. . هما دول. . وشارع ستة. . . هما دول. . أستاذ

عبده.. هما دول.. والجورنالجية.. هما دول.. والعطارين...
هما دول.. وأحلى سلام على طول السلام)!!

ومن خلال هذا الوجود المميز لعبده، بدأ يطمح - أيضًا - إلى دخول عالم الأعمال، إذ فهم - مبكرًا جدًا - علاقة التآخى، بين الصحافة والبيزنيس!!

إلا أن قليوب، كوحدة، جغرافية واقتصادية، لم تسمح له بأكثر من الاشتراك، فى صفقات صغيرة، قَبِل بها، باعتبار أنها بداية ستتطور - حتمًا - إلى ما هو أهم وأكبر، وكانت أشهر هذه الصفات ما عرف - كوديًا - بين عبده وأصحابه، بـ «صفقة المراين»، والتى تم فيها توسُّط «عبده» لبيع أربعمائة متر من المراين الخشبية، المسروقة، الحاملة آثار ما يسمى «قمطة الحكومة» أو شعار النسر المحفور عليها، والذى يثبت نسبها وملكيتها الى شركة قطاع عام، ومن ثم يخفض سعرها، لأن علامة نسر الجمهورية هذه ستظل بمثابة إشارة تفضح مصدر المراين، وتشير إلى كونها مسروقة.

وعلى هذا الأساس، فقد قبل «عبده» مبلغ المائة وخمسين جنيهًا، الذى دسه فى يده، أحد صبية محل للفراشة، أرسله معلمه لإنجاز الصفقة، مبتعدًا عن اشتراكه مباشرة فى المفاوضات، على الرغم من أن الجميع قد تراضوا على أن مال الحكومة حلال بلال، وأن الإغارة عليه، يظللها شعار أخلاقى/ تراثى عظيم: (هذه أموالكم.. ردت إليكم)!!

وكان «عبده» يلعب أدوارًا عامة، فى قليوب، أهلته لها هذه الوضعية الفريدة، فهو ـ مثلاً ـ الذى كان يتأكد بنفسه من أن الأهالى، قاموا بطلاء نوافذ بيوتهم باللون الأزرق، فيما قبل حرب ١٩٦٧، وقد ضاعف من دوره المشهود هذا، أنه ـ كذلك ـ وقف بالبيچاما الكستور المقلمة، والشبشب، على محطة السكك الحديدية، يقود نفرًا من شباب المدارس والجامعات، لتحية الجنود المكدسين فى عربات قطار يتجه الى الجبهة، فيما أحاطت «عبده» شرذمة من العيال الذين تدلَّى مخاطُ أنوفهم على أعلى شفاههم، وقد جاءوا لاستطلاع، واستجلاء أسباب الهيصة، والمشاركة فى ترديد هتافات «عبده»: (أهلاً.. أهلاً بالأبطال)!

وكان هو ـ أيضًا ـ الذى قاد مظاهرات الفرحة بحركة ١٥ مايو، والإبلاغ عن قادة مظاهرات ١٩٧٧، واستقبال «السادات» بعد عودته من «كامب دافيد»، وتعقُّب المتطرفين الذين درجوا على الاجتماع فى جامع القيسرية، بشارع سيدى عواض، والمطالبة برد أموال المودعين فى شركات توظيف الأموال، والتظاهر أمام السفارة العراقية للحصول على مستحقات العمال، واحتضان القوات المصرية العائدة من الكويت، وكشف مؤامرات البحوث المشتركة، والتصدى لرواية «وليمة لأعشاب البحر».. كما قاد حملة منظمة لنشر رسائل متعددة فى أبواب «بريد القراء»؛ للتنديد بموقف وزارة الصحة من عدم السماح ببيع الفياجرا!

وأمام خلفية وطنية، بهذا الاتساع والعمق، غمرتها أحاسيس الولاء، والانتماء، والمشاركة والتفانى، كان «عبده» يكبر، ويتخرج فى الجامعة ليعمل بالصحافة، فيما علاقته بعطيات تأخذ أبعادًا، وأشكالاً جديدة فى كل يوم.

فى البداية كان «عبده» يصحب «عطيات»، إلى حقول الأذرة، خلف مبنى مدرسة قليوب التجارية للبنات، المطلة على الرشاح، فى جوّ موحٍ عجيب، تختلط فيه أصوات حفيف أوراق سيقان الأذرة، بخروشة قضقضة أحد القوارض لبعض الكيزان، حيث كان «عبده» يضاجع فتاته على الأرض، فيما تشخص بناظريها إلى مبنى مدرستها، تلك التى حصلت منها على الدبلوم، وهو ربما، لم يؤهلها سوى لممارسة الجنس مع صاحبها! الأمر - على أية حال - الذى لم تك إحدى بنات عائلتها تطمح إليه، بالنظر إلى أهمية عبده كدارس للصحافة، ودوره الوطنى، وبيچامته الكستور المقلمة، التى كانت بداية الحكاية كلها!

ثم مع بدء عمل «عبده» فى جريدة «خوفو» تباعدت مرات حضوره إلى قليوب، وصارت «عطيات» هى التى تذهب إليه فى شقته التى استأجرها فى منطقة العشش خلف شارع عبد العزيز آل سعود بالمنيل، وهى المنطقة التى تسترت بواجهات من البنايات الفخيمة المطلة على النيل، أو بمحلات السمكرية والشكمانجية، والدوكو، وإصلاح إطارات السيارات، المطلة على شارع المنيل العمومى، ابتداء من مدخله من ناحية كلية الطب، وحتى تقاطعه مع

شارع المسلمانى. وقد رفض «عبده» الانتقال من هذه الشقة، إلى أى مكان آخر، على الرغم من الصعود الصاروخى لوضعه الاقتصادى والمهنى، إذ كان يرى أن بقاءه فى مثل هذه الشقة يصرف الانتباه، والتساؤلات عن ذلك الصعود.

لم تشعر «عطيات» يومًا أنها مؤهلة بفقرها، ودبلومها، وانسحاقها أمام الضغوط، وتسليمها من دون شروط، لأن تناقش أمر علاقتها بعبده.. كان عليها أن تقبل، تقبل فقط، إذ لم تك تعرف سوى أن «عبده» هو قاطرتها إلى قُدَّام، أو رافعتها إلى فوق، التى ستمكنها يومًا من عبور هذه المراوحة المرهقة والمحبطة التى وقعت فى أسرها ما بين مدرسة قليوب التجارية للبنات ودبلومها، وما بين وظيفة عمر أفندى وبيچاماتها الكستور المقلمة، وهى أقصى ما استطاع المجتمع أن يكافئها به، بعد كفاح مائتى جيل، من أجيال عائلتها، والذى أوصلها بالكاد إلى هذه العتبة.. هذه الحافة!

هى بالضبط المراوحة نفسها التى أرهقت قليوب، بين كونها بلدة صغرى، أو مدينة كبرى أو قرية على قدر حالها، والتى جعلت روح هذا البلد، تتعلق بكل قطار يعبرها ـ جنوبًا ـ إلى القاهرة، أو شمالاً إلى أدغال الدلتا، منتظرةً ـ هى الأخرى ـ رافعة تدفعها إلى فوق، إلى مصاف المدن الكبيرة؛ لتصبح مثل «بنها».. أو العواصم لتتألق، وتتلألأ مثل «القاهرة»!

وبمنطق القبول والإذعان الحاكم لعلاقة «عطيات» بعبده، قبلت أيضًا ـ بشرط السرية التامة، التى أحاط بها أمر هذه العلاقة، كما قبلت بكلامه غير المفهوم فى السياسة الذى يردده على مسامعها حين تكون معه، عن أن علاقتهما ليست نزوعًا انحلاليًا أو سقوطًا أخلاقيًا، يتناقض مع الظرف الموضوعى الذى تمر به البلد، وأنه يمكن أن يدخل فى باب التناقضات الثانوية، وليس التناقضات الأساسية.. أو حين كان يحدثها عن «نبض الشارع» الذى لم تفهم ـ أبدًا ـ كيف يقوم «عبده» بقياسه، إذ لم تره ـ مطلقًا ـ يضع إبهامه على أسفلت الطريق، كيما يعرف أحوال هذا النبض أو يطمئن عليه.. أو حين كان «عبده» ـ فى مناسبات معينة من تلك التى تشتعل فيها المظاهرات، أو تعم الاضطرابات ـ يردد كلامًا كثيرًا عن «الأصابع التى تلعب فى الظلام»، وهى الجملة التى لم تفهمها «عطيات» أبدًا، كما لم تفهم شيئًا عن السياق الذى ـ عادةً ـ ما تَرِدُ فيه.. غير أن الجملة ـ دائمًا ـ ما كانت تثير فى مخيلتها أطيافًا ـ فى أبسط وصف ـ غير محترمة، فيما تدفعها إلى إطلاق ضحكة تتسربل بوشاح الرقاعة، قبل أن تُسبِل عينيها لعبده، داعية إياه ـ مستعيدةً ومستزيدةً ـ إلى أن يحكى لها مرة أخرى، حكاية: «الصوابع اللى بتلعب فى الضلمة»، بينما تتخلل أطراف أناملها شعر رأسه مداعبة!

إلا أن أعجب ما قبلت به «عطيات»، ضمن سلسلة الرضوخ المتواصلة حلقاتُها، كانت الاستجابة والتجاوب مع صرخة «عبده» فى لحظات الذروة، أثناء لقاءاتهما الملتهبة: «قوليلى يا أستاااااااااااااااذ»، وهى الصرخة العاكسة لرغبة «عبده» العارمة، فى الحصول على

اعترافات الآخرين بمكانته الجديدة، والتى حرص على حمايتها بفرض السرية المطلقة على علاقته بعطيات، أو بوضعيته الناشئة التى حرص على أن ينأى بها بعيدًا عن احتمال تعرُّض إزدواجيتة للانكشاف، حيث لن ينفع ـ حينئذ ـ تفسيرها بالتناقضات الثانوية، أو إحاطتها بكلام صاخب، هادر، شديد الحماس، عن نبض الشارع، والأصابع التى تلعب فى الظلام.

. . . .

كان «عبده» ابنًا مخلصًا لثقافة المداهمة، ثقافة التوجُّس من الآخر!! وقد شكلت الثقافتان تكوينه أو علاقته بعطيات، بشكل كامل.

فأما عن ثقافة المداهمة، فهى تأتى من تأثر «عبده»، فى نشأته الأولى، وفترته التكوينية، بظروف معينة، حكمت علاقة أبيه بالدولة المصرية!

فقد كان أبوه، بقّالاً للتموين، فى جو اشتراكى يحتم على الدولة ضمان عدالة التوزيع، بغض النظر عن وجود ما يمكن توزيعه من عدمه!

وبهذا المعنى كان منزل «صلاح دسوقى»، والد «عبده»، يتعرض إلى إغارات متوالية من مباحث التموين، التى كان أفرادها يدخلون فجرًا إلى حيث ينام «عبده»، حيث تطبق قبضة كخف الجمل لأحد المخبرين على شعره، وترفع رأسه إلى فوق، فيما يسلط المخبر، بيده الأخرى ضوء بطارية ساطع، إلى عينى «عبده» الذاهلتين، وهو

يسأله: «أين السكر... أين الزيت.. أين الجاز»!

إذ استقر فى ذهن بعض أجهزة الدولة ـ وقتها ـ أن وظيفتها هى البحث عن هذه السلع، ليس لضمان وصولها إلى الناس، ولكن للتأكد من المساواة فى عدم حصول أى من هؤلاء الناس عليها!

وفى ظل الشعور بالمداهمة ـ هذا ـ نشأ «عبده» كتومًا، يعمد إلى السرية، ويشعر أن حقائق حياته، حتى البسيط جدًا منها، هى بمثابة أسرار عظمى، لا يجوز تعرضها لحظر الانكشاف، أو الاكتشاف!!

وحتى مع تمتعه بمكانة كبرى فى قليوب، عنوانها ورمزها هو تحايا الغوازى، والمنشدين فى الأفراح: «الجورنالجيه هما دول.. أستاذ عبده.. همه دول»، فإنه ظل يستشعر المداهمة فى كل لحظة، ويتوخى تبنى كل مواقف الحكومة، كيما يجنب نفسه هذا الفزع الرهيب الذى كان يكتسح بدنه ووجدانه، حين يقبض المخبر على شعره، ويثبت ضوء البطارية فى عينيه، متسائلاً: «أين السكر.. أين الجاز»!

ومن ثم، ففى صفقاته الصغيرة، كصفقة «المراين»، أو فى علاقته بعطيات كان يتوخى الكتمان والسرية، وعلى الرغم من ذلك يشعر بأن بابًا قد يفتح عليه فى أية ثانية، وبطارية قد تثبت فى ناظريه فى كل لحظة!

ومن ثم أيضًا، فقد كان يشعر بأن أى إنجاز يحققه، ولو على نطاق محدود جدًا، هو شىء يقتضى الشعور بأقصى درجات الزهو

والفَخَار؛ لأنه تم من دون أن يداهمه أحد، كنتيجة لتوخيه الحذر، والتعتيم الكامل على حركته ومقاصده، وفى هذا الإطار، بل وفيه فقط، ينبغى فهم نظرة (منتهى الأرننة) التى يغمر بها عطيات، بعدما يفرغ من مطارحتها الغرام!

أما عن ثقافة التوجس من الآخر، التى شكلت وعى وتكوين «عبده دسوقى» على هذا النحو، فربما يلزم لفهمها الإبحار ـ قليلاً ـ فى جغرافيا قليوب نفسها.

إذ تتكون قليوب ـ أساسًا ـ من شارعين رئيسيين، أحدهما هو شارع سيدى عواض، والآخر هو شارع المدارس، وطبيعة الشارعين أو العلاقة بينهما، حددت ملامح «عبده دسوقى» النفسية، كما ـ ربما ـ رسمت مسار العلاقة بينه وبين «عطيات».

فشارع سيدى عواض هو شارع قليوب الرئيسى ذو السلطة والنفوذ القديم فى مجال التنابذ بالأصالة والحسب! ولكنه لم يعد كذلك ـ الآن ـ لأسباب ديموغرافية واقتصادية.

على يمينه جامع القيسرية، يحتل ناصية كاملة، وعلى يساره مبنى كالح، عليه لافتة تشير إلى كونه مجلس المدينة، وقد كان مُحَاطًا بمجموعات من بائعى الفاكهة منذ سنوات، وهم الذين تم طردهم، فى موقعة حربية، شاركت فيها قوات ضخمة للأمن، ضد البائعين العُزل من أى سلاح سوى نوى البلح، وكانت هذه ـ تقريبًا ـ أول حرب «نووية» تشهدها منطقة الشرق الأوسط!

على أية حال، لقد استقر الحال لمجلس المدينة، وطرد البائعين، ليتطاوس ـ منفردًا وكالحًا ـ باحتلال موقعٍ حاكمٍ على رأس شارع سيدى عواض، وليستحيل رمزًا دالاً من جديد، على أن الشعب يجب أن يكون فى خدمة الحكم المحلى، وأن الاسترزاق على حس الناس، أهم بكثير من استرزاق الناس، وتظل علامة الاستفهام الحائرة فى سماء شارع سيدى عواض منذ هذه الموقعة النووية، أن الناس يعرفون جيدًا وظيفة بائع الفاكهة، فهو يبيعهم العنب والبطيخ والمانجو والتين، ويسرقهم ـ أحيانًا ـ فى الميزان، أو الأسعار، أما مجلس المدينة فهم لا يعرفون وظيفته، بالضبط، ولا يعرفون ما إذا كانت إزالته لمواقف باعة الفاكهة، تعد انتصارًا للناس ضد زيادة الأسعار، أو نقص الموازين، أم أنها تكرس حجبًا للفاكهة عن هؤلاء الناس، عقابًا لهم، واسترجاعًا لتاريخ وتراث مصرى قديم، منع فيه «الحاكم بأمر الله» أصنافًا من الطعام عن رعاياه.

ثم بالتقدم ـ قليلاً ـ فى شارع سيدى عواض، تبدو «صباح» أشهر بائعة كبدة فى قليوب، كمايسترو يحرك الملعقة فى يده يمينًا ويسارًا، وتلوح بها فى الهواء، فيما تصنع الأبخرة والطشطشات حولها، سيمفونية تعلن عن حضورها الطاغى، والمسيطر على جو المكان، والتى لم تفلح روائح الطهى الفلاحى ذى التقلية الزاعقة، المتسربة من المنازل، فى إزالتها، أو محاصرة طموحها، فى تهديد شرعية الأكل فى البيوت!

أمام «صباح» تقع جزارة عبد الجواد، التى يديرها الآن

ابنـه «سلامة» مثبتًا لافتة، أعلى المحل، كتب عليها، بالبنط العريض: (سلامة سلم نفسه) إشارة إلى أنه يبيع بأسعار لا تنافس، وإلى جواره فسيخ الملحانى، يليه معمل «ضوا» للحلويات، وفى مواجهته فراشة «دياب»... ثم يمتد بنا الشارع إلى ميدان «الظاهر بيبرس»، حيث يربض الجامع الكبير، وكأن شارع «سيدى عوّاض»، قد ثُبت فى بدايته بجامع القيسرية، وفى نهايته بالجامع الكبير، على نحو يضفى قداسة خاصة، على كل ما هو سائد فيه من أعراف، وأوضاع، وبشكل يؤكد عدم شرعية التغيير... فضلاً عن حرمانيته!

وفى ميـدان الظاهـر تتفـرع، إلى اليمـين حـارة ضيقـة لا تسمـح لفردين - حتى - بتبادل الحديث، اسمها «حارة النصارى»، وإلى اليسار يمتد سوق الكرشة، وهو بيت القصيد!

إذ فى هذا المكان، وبعد بيتين بالضبط، يقع بيت «عطيات»، وعلى عتبته تفترش أمها الطريق وأمامها طشت من الألومنيوم يحتوى نسيج الكرشة، الأملس الغليظ الأبيض من إحدى ناحيتيه، والرمادى الملىء بالحراشف من ناحية أخرى، كما تتلفلف فيه أمعاء الممبار، وثلاثة رءُوس عجّالى وستة أكارع، وقد غطتها أم «عطيات» بقطعة من التُّل؛ كيما تدرأ عنها غائلة أسراب الذباب الذى يهاجم هذه السوق بلا هوادة، على حين فتحت ساقيها لتحتوى الطشت فيما بينهما، كاشفة عن فخذيها، غير معنية بتغطيتهما فى مواجهة إغارات عيون الرجال، كما غطت الكرشة فى مواجهة إغارات الذباب!

واجهات التجارة، على اختلافها وتباينها، رسمت حدود شارع سيدى عواض وتفريعاته.. أما الناس... فقد علق أحدهم راديو على جادون بسكليته؛ لتنبعث منه نغمات أغنية «حرمت أحبك»، فيما لا يفتأ يهز رأسه معها انبساطًا وتمازجًا، وهو يمرق بدراجته، فى خط متعرج يتفادى فيه زحام الشارع الشديد.

وأحدهم وضع كرسيًا من القش أمام بيته، وجلس بجلبابه، وطاقيته البيضاوين، يمسح نظارته السميكة، ويشرع فى مطالعة جريدته، فيما يتصاعد صراخ زوجته على ابنتها من الداخل حين رفضت مساعدتها فى تنظيف أحشاء الدجاجة التى ذبحتها اليوم: «أكنت خادمة أبيكِ.. يا بنت الكلب؟!»، والرجل يهز رأسه باعتياد وتسليم، ثم يواصل الاندماج فى قراءة صحيفته، محاولاً - بيأس - التعرف على حدود دوره الوطنى المرتجى، فى تشجيع فرص الاستثمار، وملامح مهمته المطلوبة فى سد العجز فى ميزان المدفوعات!!

وبنت تشعر بتميز حقيقى، وهى تسوى شعرها بيدها، فيما تتوسط بنتين محجبتين إحداهما صديقتها، والأخرى قريبتها، وهى لا تفتأ تختلس النظرات من فوق كتفها، لشاب يسير خلفها، مصفِّرًا بفمه، على إيقاع حركة ردفيها!

وعلى سطوح أحد المنازل ينهمك صبىٌّ فى التلويح بعلم أحمر كبير محاولاً سرقة حمام غيّة أخرى!

وصوت يتصاعد عبر ميكروفون، من فوق عربة يد، لينادى على عسل مناحل «بنها» الشهير، وعلب العسل قد رصت فوق العربة، بمهارة وإحكام، بعد الفروغ من غشه، وخلطه بالمياه والسكر.

وسيدة تشتبك فى وصلة من الشتائم المنغمة، مع صبى مصبغة جودة شراقى، الذى حدد لها سعرًا، رأته كبيرًا، مقابل صباغة بعض ملابسها، حين توشك أن تدخلها دورة استهلاك ثانية، بإضفاء بعض التغيرات على ألوانها، وإعادة تأهيلها أو تفصيلها!

فيما فتاه صغيرة تمسك ربطة من قماش قديم، تطل منها أطراف بعض ملابسها، وهى تسير خلف رجل قدم لاصطحابها إلى حيث المنزل الذى ستخدم فيه بالقاهرة، على حين يتنازعها شعور بالخوف من المجهول، ومن أطياف حكايا السيد الذى اغتصب شغالته، وشعور الإثارة والتمنى - تجاوبًا مع ما تراه فى التليفزيون - عن قصص الثرى الذى تزوج خادمته!

بائعة خضار سرّيحة، تنادى على ما تبيع من الملوخية بنداء كعواء طويل، تتبعه فى كل مرة بالنظر إلى أعلى، عسى أن يزعق عليها أحد، أو تقوم إحدى النساء بتدلية سبت من الخوص لها، كيما تُحمله بالملوخية بعد وزنها، وحين تيأس من أن يرتدَّ صدى التجاوب للنداء، تواصل السير، مخوضةً بقدميها الحافيتين فى تجمعات الماء القذر المتخلفة فى الشارع، من بقايا مياه الغسيل التى تلقيها

النسوة من السكان، ومستعدة إلى إطلاق نداء جديد كالعواء. . . . ياااااا ملوخية!

أحد أصحاب المحلات يشيح فى الهواء بكرسيه، فى اتجاه كلب أجرب، ناثرًا عددًا معتَبرًا من الشتائم فى الهواء، أكثرها مدعاة للعجب، الحديث عن هذا الكلب بوصفه ابنًا لكلب، وهى المسألة التى لم تكن مثار شك أو نكران المارة، أو السكان، كونها حقيقة چينية لم يناقشها أحد. . على أية حال، فقد جرى الكلب بعيدًا، ناظرًا بحزن ومذلة إلى المكان الذى طرد منه، فيما يفكر - جديًا - فى الهروب من الشارع، أو الهجرة من البلد!

سيدة مكتحلة، وعايقة، فى إحدى الشرفات، تستعدل فتحة الصدر فى ثوبها، جاذبة إياها لتكشف عن معظمه، متوجًا بالكردان الذهب البندقى عيار ٢٤، وتسوى شعرها، بعد أن أبصرت جارها الصول، وقد عاد من عمله فى النقطة، ثم تسرع إلى داخل منزلها، لتفتح الباب، وتعترض طريقه على السلم، بغية إلقاء السلام، وإجراء المناوشات المطلوبة، عله يرضخ للدخول، مدشنًا هذه العلاقة، تحت شعار: (الجار للجار)!

. . . .

فى هذا التكوين، بل وفى سفحه، وقاعه، كانت «عطيات» تعيش مع أمها، وإخوتها التسعة، وزوج أمها، الذى لم تعرف أبدًا ماذا يشتغل، إذ كانت شغلته الوحيدة، هى أن يعد كراسى الجوزة الفخار، ويعمرها بالحشيش، توطئة لقضاء الليل مع بعض من أصدقائه متنوعى المشارب، فوق السطوح!

الدبلوم، كان يعنى شيئًا بالنسبة لها، أما هم. . جميعًا، فلم يُبْدِ أحدهم اهتمامًا يذكر به، وربما، بل مؤكد، أنهم ينظرون إليها على أنها بلهاء، أضاعت شبابها، فى أمور تجلب «الفكر» وتعكر صفو الحياة! إذ لا يعرفون أن هذا الدبلوم كان الخطوة التى اقتربت بها من «عبده»، قاطرتها إلى قدام، أو رافعتها إلى فوق.

«عبده». . كان يقطن الشارع الآخر، أو شارع المدارس، وهو عبارة عن منطقة جديدة، بدأ إنشاؤها منذ عام ١٩٦٧، حين كانت تسمى (منطقة الجُرْن) وفيها يقع جُرْن وغيطان، وشُوَن بصل مملوكة للحاج «نور الوحش»، كما كانت علاماتها المميزة، هى سينما التحرير الصيفى، والسوق الكبيرة التى بناها الإنجليز، مسقوفة بالقرميد الأحمر، ومحاطة بسور حديدى فخيم، حيث كانت تقام سوق الاثنين ليباع فيها الزبد، والجبن القريش، والبيض، والفراخ الفلاحى.

وقد حدث تحول كبير فى هذه المنطقة بعد أن فرغ «عبده» من مهامه الوطنية التى قادها إبان حرب ١٩٦٧، والمتعلقة بإشرافه على قيام سكان قليوب بطلاء زجاج نوافذهم باللون الأزرق، أو هتافه وسط الطلبة، والصبية المتدلى مخاط أنوفهم على أعلى شفاههم: (أهلاً. . أهلاً. . بالأبطال)، والذى ترافق مع بضع زيارات مع «عطيات» لغيط الأذرة خلف المدرسة الثانوية التجارية للبنات، وحديث ـ بالطبع ـ عن التناقضات الثانوية، والتناقضات الرئيسية.

إذ ـ تَوًّا ـ بعد الحرب، بدأ تقسيم وبيع أرض الجرن، وصدر قرار بنقل سوق الاثنين خارج البلد، أما مدرسة صلاح الدين الإعدادية، والتى كانت تنافس المدرسة الأميرى فى شارع سيدى عواض، فقد توسعت بإنشاء مدرسة صلاح الدين الإعدادية الجديدة، على حين أقامت الحكومة على بقية أرض السوق، بين المدرسة والرشاح، مساكن شعبية وفرعًا لعمر أفندى، هو الذى عملت فيه عطيات فور حصولها على الدبلوم.

وفى هذا الشارع نفسه تقع مدرسة قليوب التجارية للبنات المطلة على رشاح قليوب، من جانب، وعلى حقول الذرة صيفًا والبرسيم شتاءً من الجانب الآخر.

وفى منتصف السبعينيات بدأ شارع المدارس يتغير، ويتحول إلى مساكن فاخرة، حيث اشترى الحاج «نور الوحش» إحدى المدارس من الإدارة التعليمية، لتتحول إلى أشهر منطقة تجارية فى المدينة، أشبه بسور نادى الزمالك، وأحد محلاتها تعلوه لافتة كبيرة مضيئة بالنيون ومكتوب عليها «دسوقكو»، بالعربية، والإنجليزية، إشارة إلى أبى عبده، صلاح دسوقى، والذى أصبح ـ منذ هذا الوقت ـ تاجرًا، للعسلية وبراغيت الست، بعد أن انتهى عصر التموين، والكوبونات، وضوء البطاريات فى الأعين عند الفجر، والصوت الأجش المتسائل: (أين الزيت.. أين السكر.. أين الجاز)!

على أية حال فقد أغلق دكانـه، وتـرك بيتـه فـى شـارع سـيدى عواض، إلى بيت آخر فى شارع المدارس بناه بتحويشة العمر التى أطلت برأسها من تحت البلاطة، بعد أن اطمأنت إلى أن الحديث عن «عدالة التوزيع» قد كف، وأن أحدًا لن يبحث فى أصل هذا الثروة، التى حصلها «أبو عبده»، من تهريب المواد التموينية والتى راكمها أيام البطاريات والمخبرين. . . ، وفى هذا البيت استقرت ثقافة التوجس من الآخرَ فى تكوين «عبده».

فهندسة، وتكوين البيت فى ذاتها، كانت تحض على هذا التوجس، فالبيت له بابان أحدهما يفضى إلى داخله، حيث التلامس مع أهله وسكانه، والآخر يفضى إلى غرفة الجلوس، حيث يدخل الضيف إليها ويخرج منها من دون أن يرى أهل البيت، أو يتلامس معهم إنسانيًا، وكأنه قد دخل إلى بيت أشباح، لا تراهم، ولكن تشعر بوجودهم، حين يأتون بصينية الشاى ويسلمونها لرب البيت عند مدخل باب يصل بين حجرة الجلوس وبقية الدار.

وفى هذا الجو من التوجس إزاء الآخر تشكل وعى «عبده»، واكتمل بناؤه النفسى والمعنوى، ثم زادت أرجحية هذا التوجس، بذلك التضاغط الاجتماعى والثقافى ما بين شارعى المدارس وسيدى عواض، القائم على تأكيد التميز؛ بما جعل إحساس «عبده» بالآخر يقوم على نفيه، وليس الاعتراف به والاندماج معه، فضلاً عن أن تزايد شعور عبده بالتوجس تبلور بغموض مصدر النقلة النوعية الكبيرة فى تجارة أبيه، حين أصبح عمادها تسويق براغيت الست،

والتى مهما كان مصدرها، ينبغى من وجهة نظره، حمايتها بالتوجس تجاه الآخرين، الحقودين، الحسودين، والتحوط منهم واللجوء إلى أقصى درجات السرية والكتمان ليغلفا كل شىء فى حياته مرة أخرى!

ثقافة المداهمة، وثقافة التوجس من الآخر صاغا منهج عبده فى الحياة، وفى النظر إلى البشر، بحيث تعادلت عدوانيته مع شعوره بالفزع من الناس، فهو لا يأمن لأحد إلا إذا شعر بأنه قد رضخ له، فى حال إذعان كامل، وغير هذا، فهو مبادر بالعدوان خشية أن يكون الآخر قد جهز لمهاجمته!

ومنذ أن بدأ عمله فى جريدة (خوفو)، كان ـ باستمرار ـ يتنكر لكل ماضيه، مخافة وتوجسًا، من أن يكون فى هذا الماضى ما يضر بمشروعه المهنى للصعود والترقى، ثم هو يبادر بشن الحملات الصحفية على الجميع، ضاربًا مثلاً على الدلالات الخاطئة التى يتحصلها الناس من كتابة الجورنالجية حين يتصورون أن ما يكتبه «عبده»، هو وليد شجاعة، وقلب جسور، بينما هو انعكاس كامل لإحساسه الدائم بالرعب!

أما «عطيات»، ذلك الجزء الخفى، والسرى من حياته، فهو لم يتنكر لها أبدًا، كونها تمثالاً للرضوخ الكامل، ينظر إليها بمنتهى الأرننة، ويجبرها على الاعتراف الصارخ به، حين يستنطقها:

«يا أستااااااااااااذ!!»، على حين كانت هى تنظر إلى عبده، بوصفه عبورًا، من شارع سيدى عواض، إلى شارع المدارس، ثم قفزًا إلى أفق جديد لا تحده حدود.

لقد كانت الرابطة بينهما، أعقد مما يتخيل أحد، وتقوم على احتياج داخلى كبير، وقد ظلت «عطيات» ـ لسنوات ـ تشعر أنها تحتاج إلى تقنين، أو توثيق، هذه العلاقة، تريده أن يتزوجها، لكى تشعر بأن حلمها فى أمان، وأن قاطرتها إلى قدام، أو رافعتها إلى فوق، لن تتركها لتجبر على أن تعيش بقية حياتها فى سوق الكرشه، تراقب زوج أمها وهو يعد كراسى المعسل العامرة بالحشيش، أو جارتها العايقة التى تنتظر عودة الصول فى كل يوم!

على الجانب الآخر بدأ «عبده»، بعد إلحاح كبير، وتردد أكبر، يفكر فى أن الزواج نفسه يمكن أن يكون ضمانًا للسرية والكتمان، إذا ما كان عُرفيًا، ثم أن إغضاب «عطيات»، أو عدم الموافقة على مطلبها، قد يُعرض هذه السرية، وذلك الكتمان لأعطاب وأضرار، لا يمكن الإحاطة بها، إذا ما أفشت «عطيات» أخبار هذه العلاقة تحت وطأة الإحباط والغضب.

كان هذا الموقف الوحيد الذى تمردت فيه «عطيات» على منطق الإذعان، لأنه ـ بالنسبة لها ـ كان موضوع حياة أو موت، وكان هذا هو الموقف الوحيد الذى رضخ فيه «عبده»، متجاوبًا مع مخاوفه ووساوسه، ومتنازلاً، تنازلاً طوعيًا، ومؤقتًا، عن نظرة منتهى الأرننة!

الزواج العرفى - مرة أخرى - هو التكريس الحرفى لأفكار ثقافة خشية المداهمة، والتوجس من الآخر، وعبره حقق كل من «عبده»، و«عطيات» تلبية الاحتياج الداخلى العارم لكل منهما تجاه الآخر!

أخذ «عبده» فى ارتداء بيچامته، فبدا لعطيات فى الزى الذى خُلق له.. تلك البيچاما التى شهدت قليوب من خلالها إسهامه الوطنى، وعقد صفقاته الصغيرة، ودخوله إلى سرادقات الأفراح ليتلقَّى التحايا المنغمة، ونومه معها فى حقول الأذره خلف مدرسة البنات التجارية.

ثم جلس ليشعل سيجارته، بعد أن مر بسلسلة طويلة من الاجراءات، تبدأ بتحسس موقع علبة السجائر فى جيب البيچامة، ثم بإخراج سيجارة ببطء، يليه النقر بالفلتر على أظفر إبهامه، ثم تحسس جيوبه كلها توطئة لإخراج الفم، وبعد ذلك وضع السيجارة فى الفم، ثم التردد فى إشعالها عدة مرات، وأخيرًا يتم الإشعال، فجذب النفس الأول، ثم التردد فى إخراجه، فيما يُخنفر، تجاوبًا مع اللحمية التى تسد إحدى فتحتى أنفه!

أخبرته «عطيات» أن لديها مشوارًا فى شارع قصر العينى، فأجاب - مخنفرًا مرة أخرى - أنها فى طريقه، وعليها أن تسرع بارتداء ملابسها، حتى يصطحبها معه، بعد أن يرتدى ملابسه هو الآخر!

لم ينسَ «عبده» تعليمات السرية والأمان، مؤكدًا على «عطيات» أنها ستسبقه إلى شارع المنيل العمومى، لتنتظره على محطة

الأوتوبيس، ثم يأتى بسيارته ليأخذها من هناك، ويوصلها إلى مكان يبعد ـ قليلاً ـ عن المبنى الذى تريد بلوغه فى شارع قصر العينى، فى خطة خداع تعبوى واستراتيجى لا تخر الماء!

كما لم ينس ـ كعادته فى تحميل أى شيء يقوم به، بمعان ومقاصد شديدة الوطنية ـ أن يشير إلى أنه على وشك بدء العمل فى مشروع عظيم، سيكون له أكبر الأثر فى حماية البلد، من الأصابع التى تلعب فى الظلام، وضمان حركتها فى الاتجاه الذى يعبر عن نبض الشارع! . . و«عطيات» تتأمله مبهورة بوطنيته، تلك التى رضعها طفلاً فى مدرسة رابعة العدوية الابتدائية بقليوب، حين كان يغنى كل صباح: «مِصْلُ الكميلةُ لى وطن. . وهى الحمى وهى السكن»!

وبغتة تسأله: «إلى أين تذهب ـ بالضبط ـ فى شارع قصر العينى». فيجيبها: «إلى الشهر العقارى»، فتسكت برهة ـ مأخوذة ـ إذ كان هذا هو مقصدها بالضبط، ثم تقول ـ متلعثمة ـ بأنها ذاهبة إلى نفس المكان، فلا ينسى «عبده» أن يردد على مسامعها أنه سيعمد إلى تجاهلها إذا تقابلا هناك، وعليها أن تفعل المثل، إمعانًا فى مزيد من الكتمان والتحوط والريب.

وبعدما غادرت «عطيات» الشقة فى طريقها إلى محطة الأوتوبيس، بعشر دقائق، أغلق عبده الباب وراءه، ومضى إلى مكتب الشهر العقارى بشارع قصر العينى، مقبلاً على مشروعه الجديد. . بمنتهى الأرننة!

2 البيزنس مـان

د. ســيد شنــــدى

"Two years and I'm trying to convinve you... and the eye tears are calling for you!!"

«سنتين وانا احايل فيك.. ودموع العين تناديك!!»

كان «سيد شندى»، رجل الأعمال المعروف، يقلِّب أوراقًا، فى ملف من البلاستيك، فيما دلفت سيارته المرسيدس ٦٠٠ إس، الرمادية الغامقة، إلى شارع أمين سامى، المتفرع من شارع قصر العينى، ثم توقفت أمام مجمع التوثيق النموذجى للشهر العقارى، تتقدمها سيارة «شيروكى ٤×٤» سوداء، ذات زجاج «تنتد برايفسى» أسود، يحجب الرؤية، ويزيد من إحساس التميز والقوة، كون استخدامه يعد اختراقًا للقانون، الذى يمنع مثل هذا النوع من الزجاج لأسباب أمنية.

إذ أصبح إهدار القانون فى «المحروسة»، هو بمثابة رادع لكل من تُسَوِّل له نفسه، تصور أن فكرة المواطنة تسوى بين جميع أبناء البلد، كما أصبح هذا الإهدار علامة على المهابة أو المكانة، حين صارت أيهما صنواً لمعنى اغتيال العدالة!

وقبلما تتوقف عجلات السيارة الشيروكى عن الدوران، اندفع منها اثنان من الحراس الشخصيين (بودى جاردز)، وتبعهما زميلهما الثالث، من المقعد الذى يجاور سائق المرسيدس، على حين وقف الثلاثة، فى توتر مخبول، برءوسهم الصغيرة الحليقة، وأجسامهم المتضخمة المنفوخة، والنظارات السوداء «الأوكليز»، وستراتهم

المفتوحة، لتمكنهم من الانقضاض على طبنجاتهم المثبتة على خواصرهم، والتقاطها عند اللزوم، يتلفتون ـ بعدوانية ـ إلى المارة فى الشارع، فيما هؤلاء الناس يحدجون فيما يجرى، ولكن من دون الإتيان بأية حركة أو فعل، وبشكل يجسِّد غضبًا مكتومًا، فيه معنى العجز، واعتياد عدم (المساواة)، فضلاً عن (الإخاء) و(الحرية)، وبما يوحى، وكأن المشهد ـ كله ـ من عصر ما قبل الثورة الفرنسية!

أحد الحراس الذين يبدون كشخصيات أفلام الكارتون، أو ألعاب الفيديو، يفتح باب السيارة المرسيدس الخلفى، ليخرج «د. سيد شندى» فى حلة «كنالى» إيطالية بيج، وقميص أزرق غامق، ورابطة عنق «روسينى»، ذات أقلام عريضة مائلة، نبيتى، وذهبى، وكحلى، وقد حرص على أن تكسو وجهه علامات التجهم المشوب بالعدوانية، فهذه العدوانية، فضلاً عن القرف، أصبحت دليلاً على علو الطبقة، وسمو الوضعية، وهما أمران كان «سيد» حريصًا على إظهارهما، كدرع واق من صواريخ التباسط والتواضع، التى تسمح للآخرين بغزو حدود مشروعه، واحتلال قلاع خصوصيته!!

أحد مجانين الشوارع،تتساقط قطرات اللعاب من فمه، وهو يشير بيد ـ تعلوها طبقات سوداء لزجة من الوسَخ، إلى سيد، فيما تتشابك أحرف كلماته معًا، لتنتج بصعوبة وتلعثم جملة، لا محل لها فى هذا السياق:

«يا باشا.. اللهم صلى ع النبى.. حلو.. حلو»!!

ثم يسحب ـ خلفه ـ صندوقًا من الكارتون مربوطًا بدوبارة، ويطل من على إحدى حوافه قط متسخ مذعور، والرجل يضحك، ويصرخ، وهو يتلفت ـ ملتاثًا ـ نحو سيد والحراس: «حلو.. حلو»!!

طريق طويل جدًا، أوصل «د. سيد شندى»، إلى عتبة مجمع التوثيق، ليبدأ التحرك ـ إجرائيًا ـ نحو ما أطلق عليه: «مشروع القرن»! وهو الطريق الطويل نفسه، الذى جمعه بعبده دسوقى، الواقف فى انتظاره، على قمة السلمات العشرين، فى مدخل مجمع التوثيق النموذجى.

فقد كان سيد يسكن منطقة المرج، ومن ثم يستخدم القطار نفسه، الذى يستقله «عبده» إلى قليوب، فى أيام الجامعة.

كما كان سيد طالبًا فى كلية السياسة والاقتصاد، التى تقع ـ جغرافيًا ـ فى موقع قريب، من كلية الآداب، داخل حرم جامعة القاهرة.

ومن ثم تكرر التلاقى، فى محطة مصر، أو فى الجامعة، أو فى الحافلة العامة، التى تربط ما بين الجامعة، وميدان رمسيس، أو فى الطريق، حين ـ لأسباب تتعلق بنوع من الفقر كنيته «المدقع» خصوصًا فى الأوقات التى لا يبرم «عبده» فيها صفقات مهمة ـ يقرر الشابان أن يقطعا المسافة إلى محطة مصر، مشيًا!

وعبر تعدد اللقاءات، بدأ التعارف بينهما، والحديث.. جلوسًا على أريكة قطار، أو وقوفًا وانحشارًا فى ممرات إحدى عرباته، أو تسطيحًا على سقفه، فيما صفير الهواء، وكركبة صوت العجلات على القضبان، ودبيب دقات قلبيهما خوفًا، يصمَّان الآذان، ويدفعانهما إلى تهنئة بعضهما البعض بنجاة الوصول، حين يتوقف القطار، على رصيف المرج، أو على رصيف محطة مصر.

وبتطور العلاقة، بدأ «سيد» زيارة «عبده» بقليوب، حيث أدرك ـ من اللحظة الأولى ـ ميل عبده إلى السيطرة، والاستعلاء، عندما شاركه فى مباراة كرة شراب، فى ساحة قليوب الشعبية، بجوار شارع المدارس، ووسط الجرى، وصراخ اللاعبين، على بعضهم البعض، وتصفيق السابلة والغوغاء المتحلّقين حول الساحة، صرخ أحد اللاعبين على «عبده»؛ ليمرر له الكرة: «وله يا عوبد.. باسى»، فإذا بعبده يضع قدمه على الكرة، ضاغطًا بكل غيظ وموجدة، حتى فقدت استدارتها، وبدت فى شكل بيضاوى، توشك على التمزق من أجنابها، ثم أشار ـ بطرف سبابته إلى اللاعب الذى جاهر ـ علانيةً ـ بالنداء على اسمه مطالبًا بالتمرير، قائلاً بحزم: «اسمى الأستاذ عبده.. يابنى آدم.. فاهم».. وذلك ـ بالطبع ـ بعد أن رمق اللاعب بنظرة سِمّاوية، نارية، نزلت عليه كشواظٍ من نار، وكادت أن تحوله إلى بخارٍ يتسامى إلى عنان السماء!

ومن يومها و«سيد» يلتزم إلتزامًا حديديًا، بتلقيب صديقه: «أستاذ

عبده» بعد أن هاله المصير الذى آل إليه لاعب الساحة الشعبية، حين تم توبيخه علانيةً أمام الجمهور، فضلاً عن اكتوائه بالنظرة النارية السِماّوية ذات التأثير الكاسح!

وقد ضاعف من احترام «سيد» وتوقيره ـ المبالغ فيهما ـ لعبده، أنه كان يحتاج ـ فى بعض الأحيان ـ تحت وطأة العوز، إلى اقتراض مبالغ كبيرة يصل بعضها إلى ربع جنيه كامل، ولم يك لديه ـ بالطبع ـ سوى «عبده»، وبالذات، حين تكون أحواله المالية متيسرة، عبر صفقاته الصغيرة، والتى بدأت بالتوسط بين حرامى غسيل، وإحدى النسوة، لإعادة سروالها المسروق، مقابل خمسة عشر قرشًا، خمسة للحرامى، وعشرة لعبده، مرورًا باستعادة تليفزيون ١٧ بوصة من سارقه، مقابل خمسة جنيهات، أصر صاحب التليفزيون على تخفيضها إلى ثلاث، لأن التليفزيون، كان يعرض ـ وقت سرقته ـ مشهدًا إباحيًا فاضحًا، ثم فوجئ الرجل بأن المشهد اختفى عند إعادة التليفزيون، على الرغم من تقليبه جميع القنوات، التى لم يجد له فيها أثرًا!

ثم ـ أخيرًا ـ كانت «صفقة المراين» الشهيرة، وقد شارك فيها سيد، بالتفاوض، والمحاجاة، والإقناع، لخمسة اجتماعات متوالية، عقدت مع صبى محل الفراشة، فى قهوة «عنبة» بجوار المحطة، وكان نصيبه عشرين جنيهًا ـ بالتمام والكمال ـ من جنيهات الصفقة المائة وخمسين!

وكم من مرات، جال فيها «سيد»، مع «عبده»، المرتدى بيچامته الكستور المقلمة، أو حضر معه عرسًا، أو صهبة، وتمتع بأن يذكر المنشدين، والغوازى اسمه على سبيل تحية «عبده»، وإكرامه: «أصحاب عبده.. هما دول.. شباب المرج.. هما دول.. وأحلى سلام على طول السلام»!!

ثم كانت هذه الصداقة، لا تخلو ـ كذلك ـ من تبادل ثقافى وأكاديمى، حين فهم «سيد» من «عبده» ـ عبرها ـ حدود قوة الصحافة كوسيلة تأثير، أو تشهير مرعبة، بينما كان «عبده» يحرص على معرفة بعض مصطلحات العلوم السياسية، من «سيد»، حتى يغلف بها حججه، ومواقفه ذات الطابع السياسى والوطنى الجلى، وعلى رأسها، «الأوليجاركية» و«السلطوية»، و«الجيو استراتيجية»، و«جماعات الضغط»، و«الكباس»، و«العدة الساكتة»!!

بل، وقد وصلت هذه الصداقة، إلى ذروة عالية من القوة، والمتانة، حين كان «سيد»، هو الوحيد الذى أطلعه «عبده»، على أمر علاقته بعطيات، واخترق معه جدار السرية، وستار الكتمان!

وبعد التخرج سعى «عبده» إلى التعيين فى جريدة «خوفو»، وكان له ما أراد، إذ كانت الصحيفة على وشك بدء مشروع تطوير، يعمل على تعيين الحاصلين على المؤهلات العليا، محل قدامى صحفييها من خريجى صحف، ومجلات ما قبل الثورة، التى اختفى ـ عمليًا ـ ما

كانت تعبر عنه من مصالح وأوضاع، مثل: (الأنفاس)، و(اشمعنى)!!، وكان لهذا التطوير منطق آخر غير موضوع المؤهل، هو استخدام جيل جديد سهل التشكيل، فى صياغة، والتخديم على المشروع السياسى الجديد للصحيفة، وركيزته الأساسية، الهجوم على الإمبريالية، وهو ما نجم عنه ـ وبالذات فى السنوات الأولى لتعيين هؤلاء الشباب ـ عدة خسائر، حين أغاروا على أشياء كثيرة، ثم اكتشفوا أنها ليست الإمبريالية، التى يتعقبونها، ويستهدفون إبادتها، وكانت هذه الأشياء ـ من دون حصر ـ هى: الآيس كريم، وبوركينا فاسو، والباذنجان الرومى، والحلل البرستو، والعنب البناتى، وتنوة القهوة!!

أما «سيد»، فقد أصبح معيدًا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم ما لبث أن ابتُعث إلى جامعة جورج واشنطن، فى العاصمة الأمريكية، للحصول على درجة الدكتوراه، تحت الإشراف العلمى للمكتب الثقافى المصرى.

وطوال سنوات دراسة «سيد»، كان «عبده» ينشر عنه فى مصر، أخبارًا مكثفةً، من أجل الترويج لصديقه، الذى تحول ـ واقعيًا وفعليًا ـ إلى شريك فى رحلة الصعود والمجد، يؤمن بعبده، قدر محبة «عبده» له!

ودرج الناس ـ وقتها ـ على أن يقرأوا فى جريدة «خوفو» عناوين من طراز: «الأمريكيون مبهورون بعبقرية شاب مصرى يبحث فى العلاقة بين الرقص الشرقى، والنظم السياسية الثورية، فى العالم

الثالث». . أو «الشاب الذى رفع رأس مصر عاليًا فى واشنطن يهدى رسالته للدكتوراه إلى قوى (الوسط) فى العالم الثالث». . أو «نهج جديد فى العلوم السياسية يعتمد على أسلوب الواحدة ونصف فى إثبات صحة الفروض»!

ثم كان «عبده» يعمد ـ تدعيمًا للحملة وترويجًا لسيد ـ إلى أن ينشر حوارًا من وقت إلى آخر، مع إحدى الراقصات الشهيرات، لتؤكد فيه، «أنها ـ منذ بواكير صباها ـ تشعر أن شيئًا ما بداخلها، يربطها بالأنظمة الثورية، ويجعلها تنفر من الإمبريالية بشكل تلقائى، وأنها كانت تشعر برغبة عارمة فى هز بطنها، كلما أنصتت إلى طبول الحرب، أثناء أزمة الصواريخ الكوبية»! وعادةً ما كان «عبده»، يجرى بعض التجارب العملية على الراقصة التى يحاورها، حين يقرأ أمامها بيانًا ملتهبًا لإحدى الحركات الثورية فى العالم الثالث، ثم وثيقة لوزارة الخارجية الأمريكية، على التوالى، ويراقب وسطها أثناء القراءة، فيلاحظ أنه اهتز وارتعش فى الحالة الأولى، على حين ظل يراوح مكانه فى الحالة الثانية، بما يعد دليلاً مخرسًا، يؤكد صحة النظرية التى توصل إليها «سيد» فى بحثه!

ولم يكتف «عبده» بهذا، بل واستكتب «سيد»، فى «صفحة الرأى»، وفى «باب بريد القراء»، وغيرها من أبواب الصحيفة، وكان ـ دائمًا ـ ما يحدد له ـ تليفونيًا ـ المواضيع التى يركز عليها النظام السياسى، فى المرحلة التى يمر بها، لكى يكتب «سيد»، فى

الموضوعات نفسها، فيصيب اهتمامًا لدى المسئولين فى الدوائر والأوساط العليا، ويُبرز تحليه ـ من جهة أخرى ـ بالصفات الرئيسية، التى تؤهل صاحبها لأن يُطلق عليه، فى أروقة السلطة، ودهاليز الحكم، لقب: (ابن النظام)!

وقد كانت أنجح إسهامات «سيد»، هى سلسلة مقالاته، التى حرص فيها، على إلصاق كلمة أمريكا بكل تطور ثورى محلى، كَيما يعطى نفسه مبررًا للكتابة عن هذه التطورات المحلية من واشنطن.

وحملت هذه السلسلة من المقالات عناوين: (أمريكا والثورة الخضراء)، و(أمريكا والثورة الإدارية)، و(أمريكا وثورة التصحيح)، و (أمريكا وثورة الإتصال)، و (أمريكا وثورة دسوق)!

ولا يعرف أحد ـ على وجه الدقة ـ ما ثورة دسوق؟ وما مبادئها، ومن قادتها، أو من خصومها وضحاياها، وبالتالى ـ وتبعًا لهذا كله ـ ما دور أمريكا فيها، إلا أن القراء ـ عادة ـ ينظرون إلى ما لا يفهمون، بإكبار، وتقدير، بل ويدعى بعضهم، فهم ما لا يفهمه، تأكيدًا لمعنى التميز، وسمو المكانة، الثقافية والفكرية؛ فيسهمون إسهامًا، لا مزيد عليه، فى تكريس، وترسيخ مؤسسة الجهل، وعلم التخاريف!

وليس القراء ـ فقط ـ وإنما «عبده دسوقى» نفسه، الذى ظهر فى أكثر من لقاء، وندوة تليفزيونية، مؤكدًا أن عائلته تسمَّت بلقب (دسوقى)، تيمنًا بثورة دسوق، وتبركًا!، وليشير ـ فى غير موضع ـ

إلى أن دور هذه المدينة الثورى، كان قليل الذيوع، لأن ثوارها، لم يكونوا من طلاب الشهرة، ومن ثم فقد قاموا بثورتهم من سُكات، وبأسلوب الحسنة المخفية!!

وكان «عبده» ـ فى مثل هذه المناسبات، يكرر الإحالة إلى مقاطع بعينها من مقالات د. سيد شندى، أستاذ العلوم السياسية، فى واشنطن، وبالذات تلك المقاطع، التى تشير إلى الخلاف بين دسوق، والولايات المتحدة الأمريكية، وخصوصًا حول موضوع تخفيض الرءوس النووية من الجانبين!

أما «سيد»، فقد بذل محاولات مضنية مع البروفيسور «حميد مولانا»، الأمريكى/ الإيرانى الأصل، خريج جامعة كولومبيا، وأستاذ الإعلام بالجامعة الأمريكية، فى تشيفى تشيز، لإقناعه بدعوة «عبده دسوقى» ليقدم تجربة صحفى من العالم الثالث إلى الطلاب فى واشنطن، وهو ما سوف يكون فرصة لسيد ـ أيضًا ـ للمزاوجة بين تجربة عبده، وبين أركان نظريته حول الرقص الشرقى، وعلاقته بالأنظمة الثورية، وبالذات فيما يخص عناصر: (الاهتزاز) و(التأرجح) و(الرجرجة)، وهى ـ أيضًا ـ صفات إعلامية/ صحفية، كما هو مفهوم!

وعندما وافق البروفيسور «حميد»، وجاء «عبده» إلى واشنطن، نَظَّم له «سيد» عدة لقاءات، مع وجهاء الجالية المصرية، من الأطباء ورجال الأعمال وأساتذة الجامعة فى جانب، بالإضافة إلى بعض الذين يدّعون أن تركهم مصر كان لأسباب سياسية، بينما حقيقة الأمر

أن خروجهم، كان للهروب من أحكام فى قضايا نصب، أو تسهيل، أو نفقة، أو إدارة أوكار للقمار، فى جانب آخر!

وفى هذه الاجتماعات، قدم سيد صديقه تقديمًا، ثقيلاً، مبالِغًا، لائقًا، الأمر الذى أشعر «عبده» بالامتلاء والغبطة، كما دفع الحضور إلى مخاطبته: (أستاذ عبده)، وهو اللقب الذى يذوب «عبده»، ويسيح، حين يستمع إلى حروفه، فى حال يمزج بين ما هو حسى، وما هو سيكولوچى على نحو فريد.

وبالطبع انتهزها «عبده»، فرصة، كيما ينخرط فى وصلة وطنية حارة، حتى تكون كلماته لائقة بالمانشيت، الجاهز فى ذهنه لرسالة واشنطن، التى سينشرها فى الصحيفة حين عودته، وهو: (الجالية المصرية فى أمريكا بخير. . مصر فى القلب والقاعدة سليمة)، ومن هنا فقد كان حديث «عبده» منصبًّا، على أن مصر هى القيادة والريادة، وهى البؤرة، وهى السُرَّة. . . وأن أبوابها مفتوحة ـ باستمرار ـ للمخلصين من أبنائها وراء البحار.

وقد أثار أسلوب «عبده»، الذى بدا، وكأنه مسئول كبير، رهبة الحضور ومخاوفهم، فعزم «عبده» ـ فوراً ـ على استغلال هذا التأثير، وأعلن عن تشكيل رابطة منهم أسماها: (أصدقاء عبده)، حتى يضمن تواصلهم مع الجريدة، أو ـ بالأحرى ـ معه شخصيًا، وتزويده بأخبار، وأسرار عن الجالية، والبعثة الديبلوماسية المصرية، غالبًا ما تعكس صراعًا، أو رضاءً شخصيًا، بين المُبلِّغين، والمُبلَّغ عنهم، ولكن

عبده ـ فى النهاية ـ يكون أول من يرفعها للمسئولين، فيكتسب حصوله على الصك المعتمد، أو العلامة التجارية، التى تؤهله لأن يوصف بلقب: (صحفى دولى)... إذ كان مفهوم الدولية لدى جميع الأطراف ـ فى هذا السياق ـ يعنى الحصول على المعلومات (المحلية) من (الخارج)!

وفى النهاية عاد «عبده» إلى مصر، لتمتلئ صفحات الجريدة، بالحديث عن تأثير زيارته، أو عن الموقع العلمى، والأكاديمى المرموق، الذى يحتله «سيد» فى الوسط الأمريكى البحثى والجامعى، وغرقت القاهرة فى الحديث عما لا تفهمه، بوصفه شيئًا يستحق الاحترام والإكبار!

مشوار «سيد» فى أمريكا، لم يكُ سهلاً، فأمريكا بلد شديد التعقيد، ملئ بالتفاصيل، والقوانين، والمؤسسات، والأعراق، والأديان، والولايات، والسوبر ماركتس!!

ومن خلال نشأة سيد الأولى فى المرج ثم لقائه بعبده (الذى كان نقطة تحول فى حياته، عرف من خلالها كل أنواع الصفقات الوطنية والمالية والإنسانية)، وبعد ذلك من خلال سفره إلى البعثة، ودراسته للدكتوراه، بنى كل فكره، وحركته على محالفة (القوة) متدرعًا بفكرة شعبية ميثولوچية مصرية، مؤداها (قَبِّل اليد التى لا تستطيع عضها)!

ومن هنا عمد «سيد» إلى محالفة القوة، سواء كانت مكانة «عبده»

المميزة فى قليوب، أو وضعية الولايات المتحدة الأمريكية فى النظام الدولى!!

وكان الهاجس المسيطر على مخ «سيد»، هو أن هذا التحالف، لن يكون، إلا حين يندمج أكثر فى المجتمع، ثم فى النظام الأمريكى بالتبعية، لكى يستطيع ـ بالفعل ـ أن يعتبر نفسه حليفًا للقوة.. حليفًا لأمريكا!

وبالطبع لم يك ممكنًا على «سيد»، أن يستميل أمريكا، كما استمال «عبده»، بأن يقول لها: «يا أستاذه»، أو يسطح إلى جوارها على ظهر قطار، أو يشترك معها فى مفاوضات حول صفقات من طراز السروال، أو التليفزيون، أو المرَاين!

الطريـق إلى محالفة أمريكا ـ عنده ـ كان بأمرين، أولهما: أن يقدم أوراق اعتماده شيكًا سياسيًا على بياض، من خلال التشويه المتعمد، والكامل للنظم الثورية فى العالم الثالث، عبر رسالته، عن العلاقة بين هذه النظم، والرقص الشرقى.. وثانيهما: أن يدخل ـ فى مرحلة متقدمة ـ إلى المؤسسات الأمريكية، أو ذات العلاقة الوثيقة المباشرة، بالولايات المتحدة الأمريكية، ويصبح جزءًا عضويًا منها.

ولكى يتمكن من هذا، كان عليه ـ بدايةً ـ أن «يخلع» من الجامعة المصرية، التى ابتعثته، ويقدم استقالته، بعد حصوله على الدكتوراه، ثم يتزوج أمريكية، حتى تكون بوابته إلى هذا المجتمع الأمريكى: عقله وروحه.. مركزه وأطرافه.. سلطته وناسه.

وقد كانت «چينيفر دون بروفسكى»، الخبيرة الاقتصادية لشؤون الشرق الأدنى، فى معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، هى التى حددها «سيد» كهدف ينصب شباكه من حوله، مستغلاً دمامتها، وبدانتها، وحواجبها الغليظة المهوشة، التى تبرز شعيراتها من تحت إطار نظاراتها، والتى ـ جميعًا ـ تؤكد اشتياقها لأية كلمة عاطفية، أو غمزة مجرمة ذات مغزى، كونها ـ بالقطع ـ لم تتحصل هذه الكلمة، أو تلك الغمزة منذ حرب فيتنام على الأقل!!

«چينيفر» هى صيد مضمون ـ إذن ـ وقد كانت فوق ذلك مدخلاً، لاشك فى فاعليته إلى أوساط الإدارة الأمريكية، واللوبى اليهودى، عبر علاقة معهد واشنطن بأيهما، وقد تعرف «سيد» بها، وقت حضوره مؤتمر هذا اللوبى المعروف باسم: «الإيباك» فى هيلتون واشنطن، بكونيتكت أفينيو، حين بادرها: «لم أكن أتصور أن أصادف مثل هذه الحواجب الرائعة، فى مكان كالإيباك.. إن مكانها الحقيقى هو متحف الفن الحديث»!!

فبربشت «چينيفر» برموشها خجلة، فيما احمرَّت وجنتاها، قبل أن تسقط مغشيًا عليها، وتُنقل على الفور إلى مستشفى واشنطن؛ لتجرى لها الإسعافات اللازمة، ثم.. ثم وهى ما بين اليقظة والغياب، تفتح عينيها لتجد «سيد» أمامها يحمل باقة من زهور الخشخاش، وخاتمًا للزواج، فراحت فى إغماء جديد، وهى تتمتم وتهذى بكلمات غير مفهومة، لم يتبين منها «سيد»، والممرضات،

صديقاتـها، والمتحلقـين حول الفراش، سوى كلمة: (بوللم.. بوللم) فأدرك الأطباء أنها تعانى صدمة عاطفية حادة، وأنها تحتاج إلى الراحة والبعد عن مصادر المفاجآت، لمدة أسبوع على الأقل!

ومنذ تلك الليلة، عاشت مس «دون بروفسكى» فى جيشان عاطفى غامر، وانخرطت نشوانة، فى حكايات ترويها على الهاتف، لكل صديقاتها، عن «سيد»، والسحر الذى يقطر من عينيه الشرقيتين السوداوين، وقد أصابت هذه المسألة «سيد»، ببعض الحيرة، بما دفعه إلى تأمل عينيه فى مرآة الحمام طويلاً، الأمر الذى استدعى من ذاكرته حكاية رواها له أهله منذ سنوات، عن إصابته بالرمد الحبيبى طفلاً، ولكن ما شغل بال «سيد»، وقضّ مضجعه، أن هذا الرمد لم يترك أثرًا فى عينيه، يمكن النظر إليه بوصفه سحرًا!!

على أية حال، فقد اعتبر «سيد»، أن «جينيفر» تعيش مرحلة من الإغراق فى الهلاوس، بعد أن دهمها بحبه بشكل مباغت، وقد دفعه ذلك إلى تأجيل سؤالها عن حكاية السحر الذى يقطر من عينيه، إلى أجل غير مسمى... مركزًا كل طاقته العاطفية، وقدراته الإقناعية على دفع «چينيفر» إلى التعجيل بالزواج، حتى يبدأ فى استغلالها لتحقيق أهدافه الأكبر، خصوصًا أنه كان قد بدأ يخشى عليها من أن تفقد وظيفتها (وسيلته، وجسره إلى التحالف مع القوة.. التحالف مع أمريكا) بعد أن بدأ المسئولون فى معهد واشنطن، لسياسة الشرق الأدنى، يتبرمون ـ مؤخرًا ـ من إعراضها عن العمل، وقضائها لمعظم الوقت، فى الثرثرة مع صديقاتها هاتفيًا، أو طلاء أظافرها، أو تغيير لون الروج والطرقعة بشفتيها حتى تضمن توزيعه على كل المساحة

المطلوبة، فضلاً عن التنهد المستمر، المترافق مع التسبيل!

وما أن تم الزواج حتى قدمت چينيفر زوجها، لعشرات الأشخاص/ المفاتيح، فى أكبر المحافل الأمريكية، سواء فى هيئة المعونة الأمريكية AID، أو فى إيكونوميك فورم Economic Forum، الجمعية الاقتصادية، أو فى إدارة الاحتياطى الفيدرالى، أو فى لجنة الموازنة بالكونجرس، أو اللجنة الفرعية للتمويل، وأخيرًا فى صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى.

وبدأ «سيد» ـ وفقًا لنظرية التحالف مع القوة ـ ينسج علاقته، بسرعة ونهم، مع كل من قدمته «چينيفر» له، مستغلاً تقديمه الشيك السياسى على بياض، والذى يتمثل فى رسالته العلمية عن علاقة الأنظمة الثورية بالرقص الشرقى، ومستغلاً ـ أيضًا ـ المفتاح الذهبى لأبواب واشنطن المغلقة المتمثل فى «چينيفر»، والمؤسسة الثقيلة التى تعمل بها، وتنتمى إليها!

وكان «بنچامين جرين» نائب رئيس البنك الدولى للشؤون القانونية، واحدًا من أهم الشخصيات، التى مهدت «چينفر» الطريق لسيد، كيما يقيم معها أواصر علاقة، وقواعد صداقة، وذلك فى أكثر من عشاء دعت فيه جرين إلى منزلهما فى كولومبيا أفنيو... وقد كانت نقطة بداية «سيد» معه هى الحديث المستفيض، عن احتياج البنك الشديد ـ وقتها ـ إلى خبراء من الشرق الأوسط، لأنه كان يعانى ـ مازال ـ من فترة الجذر فى علاقته بمنطقتنا، من جراء أزمة السد العالى.. ثم ـ فى أحد العشاءات، وفى المنطقة الزمنية الفاصلة بين تناول الحلو، واحتساء القهوة ـ طرح «سيد» نفسه للتعيين فى

البنك الدولى، فما كان من مستر «جرين» سوى أن وعده ببحث الأمر، ومساندة الطلب.

وبعد أيام خمسة، أمضاها «سيد» فى كمد الانتظار، فوجئ بچينيفر تدخل عليه شقتهما، وهى تفط وتنط، صارخة: «ساااابيد... سادوووو... لقد فعلناها»، فيما أرض الشقة تهتز، وفانوس النور يتأرجح، من هول تأثير قفزات «چينيفر»، التى كان لحمها الحنيز يترجرج، على حين بدا حاجباها منكوشين، من فرط الانفعال، والنط!

وما أن كفت «چينيفر» عن القفز، حتى كف كل شىء عن الاهتزاز، وسألها «سيد» عن الخبر، فأجابته بأن البنك الدولى قد وافق على تعيينه، وأن موعد المقابلة الشخصية تحدد فى اليوم التالى صباحًا.

ونجح «سيد» فى العبور من الاختبار الشخصى، بمساعدة أصدقاء «چينيفر» فى البنك ليتعين فى IFC، أو هيئة التمويل الدولية، والتى من شأنها إعطاء قروض للقطاع الخاص، وراء البحار.

ومن خلال مسيرة العمل فى هذه المؤسسة، نشأت صداقة وطيدة بين «سيد»، ونائب مديرها «جورج مشعلانى»، وهو لبنانى، يمثل مركز القوة الحقيقية فى IFC، ولما كان «سيد» يبحث عن القوة - دائمًا - ليتحالف معها، فقد كان «جورج» - بهذا المعنى - المقصد المرتجى، وغاية المنى.

ويومًا وراء الآخر، بدأت خبرة «سيد» تتسع بالأضابير، وأصبح

على معلومية ـ شبه كاملة ـ بألاعيب جورج فى مساعدة بعض مجموعات رجال الأعمال فى الشرق الأوسط وأفريقيا، ثم نجح فى حشر نفسه، فى الأجواء، ومشاركة جورج بعض هذه الألاعيب (بعدما اقتنع، الأخير، بصلاحيته كواجهة) لقاء بعض المكافآت الصغيرة، التى أخذت تكبر، مع الأيام، إلى أن بدأ «سيد» العمل لحسابه، فوصل إلى أفق جديد.. وكان الأمر كله يتم ـ فى جميع المراحل ـ بقدر هائل من السرية تجنبًا للإبعاد من هذه المؤسسة التى تتوخى أكبر درجات الالتزام القانونى والابتعاد عن مواطن الشبهات فى عملها.

وطوال الوقت، كان «سيد»، يرفض إلحاح «جينيفر» للحصول على الجنسية الأمريكية، مصرًا على الإعلان المسرحى جدًا عن هذا الموضوع، حاكيًا القصة لكل من يعرفهم من المصريين، ومؤكدًا أنها مسألة مبدأ، وأنه يفضِّل جواز سفر مصرى أخضر، على مليون جواز سفر أمريكى أزرق!

وحقيقة الأمر، أن إصراره، على الرغم من تهدجه المسرحى وهو يحكى عن موقفه، فضلاً عن إغروراق عينيه بالدموع، كان ـ فقط ـ للحصول على المزايا التى يعطيها البنك الدولى، لموظفيه من الأجانب، مثل تذاكر السفر المجانية، وغيرها.

لقد كان كل شىء ـ بالنسبة إلى «سيد» ـ يساوى حجم المنفعة التى يتحصلها منه بالضبط، وهذه هى الفكرة الحاكمة، فى عقيدته التى

يعتنقها، فإذا تمكن من عض اليد التى تُمد له، فلا معنى ـ عنده إطلاقًا ـ لتقبيلها!!، ومن ثم إذا كانت هناك مزايا فى الاكتفاء بالجواز الأخضر، فلا ضرر ولا ضرار، ومصريتنا حماها الله.. حماها الله!

وإذا لم تك هناك مزايا، فليحيا الجواز الأزرق، وليهتف «سيد» بكلمات النشيد الوطنى الأمريكى:

"Oh, say can you see, by the dawn's early lighyt,

What so proudly, we hailed the twilight's last gleaming?

Whose broad strips and bright stars through the perilous fight"

وبهذه القدرة اللولبية على التملص، ثم التخلص من أى إلتزام أخلاقى، أو معنوى، قاطع، بدأ «سيد» رحلة خيانة طويلة لزوجته «چينيفر»، حين تعرف براقصة مصرية اسمها دلال الخضرى، ترقص فى ملهى عربى، بأولد ألكسندريا، فى فيرجينيا، يسمى «ذى كوكيت كاميل» أو «الجمل اللعوب»!

وقد جاءت معرفة «سيد شندى» بدلال، عن طريق «جورج مشعلانى»، بعد أن أفهمه أن «دلال» ـ كثيرًا ـ ما تقدم لضيوفه من أعضاء وفود المستثمرين التى تزور البنك، سهرات بديعة، وتسهم فى تسهيل التفاهم على كل شىء.. فلما توغل «سيد» منغمسًا فى علاقته بها، بدا أن جورج موافق للغاية، لأن هذا سيسهل الأمور على جميع الأطراف!!

وعلى امتداد مسيرته، كانت اتصالات «سيد» بعبده، فى مصر، متعددة، ومنتظمة، حيث يتبادل الرفيقان، الأخبار، والحكايا المثيرة، عن التطورات التى يشهدها كل منهما.

فهذا «عبده»، يخبره عن صفقاته الجديدة، مع بعض رجال الأعمال، لفض الاشتباك، بينهم، وبين الصحافة الابتزازية والصفراء، والتوسط لدى القائمين على أمر هذه الصحف للكف عن التشويه، فى مقابل مبالغ مالية تقسم بين «عبده» ورؤساء التحرير الابتزازيين، طبقًا لنموذج قليوب القديم، بالتوسط لدى حرامى الغسيل، لإرجاع سروال المرأة، مقابل مبلغ مالى، يحصل «عبده» على معظمه.

والواقع أن نشاطات «عبده» مع الصحافة الابتزازية، ومن ثم صفقاته، أخذت تتوسع، باتساع مجال الحركة العملياتى، لهذه الصحف المتوحشة فى المجتمع.. حتى لقد كف «عبده» عن قبول مسألة المكافآت، وأصبح يطلب أنصبة، أو الدخول كشريك، وقد أهله هذا النهج الجديد، لأن يصبح عضواً فى مجالس إدارات أربع مجموعات استثمارية دفعةً واحدة!!

هذا فيما أخبر «سيد» رفيقه، عن اتساع نشاطاته فىIFC ، والتى فتحت أمامه، أبوابًا كبرى، جعلت من حسابه البنكى، رقمًا تجاوزه ستة أصفار على يمينه، وذلك مراكمة فى سنوات خمس فقط.

وقد حرص «سيد» على أن يكون حسابه ـ هذا ـ فى جزيرة آيل

أوف مان فى بريطانيا، وهى منطقة حرة، بحيث لا تستطيع الضرائب الأمريكية أن تتعقبه، أو تطاله فيها، إذا ما قام الزبائن بالتحويل إلى هناك مباشرة!

غير أن كل شىء فى البنك الدولى، يمكن استشعاره، فمراقبته، وبالتالى معرفته، ولهذا بدأت رائحة نشاطات «سيد»، الذى كان أقل خبرة من «جورج» فى التمويه والتستر، تفوح، ونتيجة التقارير السلبية من رؤسائه، قررت إدارة IFC، اعتباره عمالة زائدة، وخروجه من العمل بها، بمكافأة نهاية خدمة، تبلغ مائة وعشرين ألفًا من الدولارات، تحقيقًا لقواعد الشفافية، التى يهدف البنك إلى تطبيقها على نفسه، قدر حرصه على تطبيقها على الدول المتعاملة معه، أو هكذا قال مسئولوه!

وبمجرد خروج «سيد» من البنك الدولى، طلب - على الفور - الحصول على الجنسية الأمريكية، وجواز السفر الأزرق، حتى يعود إلى مصر، خبيرًا أمريكيًا أجنبيًا، إذ أصبح اتصاف المرء بأنه أجنبى، ثم أمريكى أيضًا، أمرًا يسبغ على صاحبه ثقلاً وأرجحية فى مصر، عند طرح نفسه فى سوق العمل، أو سوق الاستثمار، وربما سوق السياسة أيضًا، ومن ثم فقد نسى «سيد» كل شىء عن موقفه المسرحى المشهود بعدم الحصول على الجواز الأزرق، وتفضيله للجواز المصرى الأخضر على مليون جواز أمريكى، كما ذهبت طى النسيان حكاية مصريتنا التى حماها الله، ولم يعد فى ذهن «سيد» سوى كلمات النشيد الوطنى الأمريكى، ونغماته أيضًا!

وعبر الاتصالات المتوالية بين «سيد» و«عبده»، والتى تسارعت وتيرتها، بعد هذه التطورات، بدأ الرفيقان يحسان أن الوقت قد حان، ليجمعهما عمل مشترك جديد، ربما هيأته الظروف بأكثر مما تصور أحدهما، حيث عاد «سيد» إلى مصر، ومعه «چينيفر» التى أصبحت مُدرسة بالجامعة الأمريكية، وافتتح مكتبًا للاستشارات الاستثمارية فى المهندسين، ثم بدأ يُعد ـ مع «عبده» ـ لإطلاق مشروع القرن، ذلك الذى رجع ليبحثه مع البنك الدولى ـ مرة أخرى ـ بعد ستة أشهر، فى واشنطن!!، متسلحًا بعلاقة مع مجموعة استثمارية مصرية قوية، ومتصلة بعدد من مراكز النفوذ، ومتدرعًا بتأييد حار، وفعال من كل أصدقاء «چينيفر» فى العاصمة الأمريكية، ومتدفئًا بمساندة قلبية وتقنية من «بنچامين جرين»، و«چورچ مشعلانى»، اللذين سيصبحان جزءًا من البيزنيس الجديد نفسه، وأخيرًا مؤتنسًا بمؤازرة مزاجية عالية، من «دلال الخضرى»، التى ستوفر الأجواء الداعمة لهذا المشروع الجديد.

. . . .

البنك الدولى

كان شارع ١٨، فى واشنطن. دى سى، يستقبل صباحًا ربيعيًا عبقريًا، مذهلاً، مليئًا بتغاريد طيور الكاردينال، والأميركان روبن، والبلوجاى، وبتفتح أزهار أشجار الشيرى الشهيرة، فيما كان يستعد لاحتضان «د. سيد شندى» مستشار المجموعة المصرية الاستثمارية الجديدة (هشِك ـ HESHEC)

التى تمثل:

High-Tech Entertainment Software-Hardware Engineering Corporation.

أو: «الشركة الهندسية الترويحية لتكنولوچيا البرمجيات، والكمبيوتر الفائقة».

وهى المجموعة التى تزمع العمل فى مجالات صناعة البيرة، والسياحة، وتقدم الاستشارات الهندسية، وتسويق، وتوزيع، وتصميم برامج الحاسب الآلى.

وقد بدأ «سيد» علاقته بالشركاء فى المجموعة، قبل إنشائها، أثناء وجوده فى مصر، عبر بوابة «عبده دسوقى»، حين أخبر «سيد» صديقه، أن «چينيفر» تلحّ عليه، لكى يشتغل فى بيزنيس صناعة المعلومات، وأنها يمكن أن تضمن له، عقوداً وعلاقات مع كل من إسرائيل والأردن، وسوف يمكنه ذلك من تقديم دراسة مقنعة لمؤسسة دولية، مثل البنك الدولى، كيما تُقدِم على إقراض أصحاب الدراسة، إذ أن وضع المشروع ـ كله ـ فى إطار فكرة التعاون الإقليمى، والسلام، سيسهل من المهمة مع البنك الدولى كثيراً.

ورأى «عبده» ـ بناء على دفع «چينيفر» لسيد فى هذا الاتجاه ـ أن يدخل إلى هذا المولد ويوسِّع النشاط، ويطوِّر الفكرة، فطرح على «سيد» إنشاء مجموعة استثمارية، تضم بعض رجال الأعمال، وهم من عَرَّفه بهم، لتقوم المجموعة بشراء أصول بعض المشاريع الجاهزة،

فى مجال السياحة، أو صناعة البيرة، على أن تكون ـ هى الأخرى نواة لتعاون إقليمى كبير، وبحيث يقوم «عبده» وسيد بالسمسرة على الشركاء فى عملية شراء الأصول ذاتها، فإذا كان الثمن الفعلى للأصول ثمانين مليونًا، يُطرح الموضوع على مجلس الإدارة، وكأن الثمن كان مائة مليون، ومن ثم يصبح نصيب «عبده» و«سيد» عشرين مليونًا، قبل أن يبدأ المشروع!! هذا غير المبالغ التى سيحصلاها حين ينطلق الشغل نفسه!

أما عبر صناعة البرمجيات والكمبيوتر، فسوف تكون اللعبة هى المعلومات، صرعة هذا العصر، وسلاحه، وهاجسه!

هذه المرة ـ إذن ـ يبدأ «د. سيد شندى» علاقة جديدة مع البنك الدولى، ليس كموظف فى IFC، ولكن كممثل لمجموعة «هشك» البازغة فى «المحروسة»، والفارق بين الحالين، هو كالمسافة الفاصلة بين «أحمد زويل» و«شعبان عبد الرحيم»، وهو ذلك الفرق الذى ستتحدد أبعاده بشكل كامل ـ بعد لقاء «سيد» مع مسئولى البنك.

الطريق ما بين فندق «فور سيزونز» فى چورچ تاون، وبين البنك الدولى، يستغرق ـ بالضبط ـ عشرين دقيقة مشيًا على الأقدام، ولكنها اتسعت ـ لا يعرف «سيد» كيف ـ لآلاف الخواطر، التى مرت برأسه، فيما كان يجهز النقاط، والأفكار التى سيطرحها على «بنچامين جرين»، و«چورچ مشعلانى»، وكذلك بعض الانطباعات والذكريات القديمة.

بنسلفانيا أفينيو، هو الطريق الذى يصل ما بين النقطتين، قبل أن يواصل مسيرته نحو البيت الأبيض، الذى يحمل رقم ١٦٠٠، فى مسلسل بنايات هذا الطريق.

وبخطوات منتظمة، وواثقة كان «سيد شندى»، يقطع هذه المسافة من بنسلفانيا أفينيو، متأملاً بعض مبانى جامعة «جورج واشنطن»، التى حصل على الدكتوراه منها، أو مبنىIFC الأبيض الذى يعرف بمبنىF، ضمن مبانى البنك الدولى المتناثرة، حول بنايته الرئيسية، المشهورة بمبنى MC، وشلال هادر من الصور والمشاهد.. الوجوه والحكايا يغمر عقل «سيد»، ووجدانه، وحواسه!

ووصل صاحبنا إلى البناية رقم ١٨١٨، أو المبنى الرئيسى للبنك الدولى، بهندسته ذات الطابع بعد الحداثى، أو شديد المستقبلية، وهى السمة التى تميز معظم مبانى المنظمات الدولية فى أى مكان فى العالم، كونها تحاول أن تربط نفسها بتطلع الإنسان إلى غدٍ، وصَفَتْه معظم وثائق هذه المنظمات، بأنه.. «أفضل»!

واجهة عريضة من الزجاج العاكس لأشعة الشمس، تتخللها بالطول، والعرض أعمدة معدنية فضية لامعة، ومظلة مستطيلة من الأسمنت ذى الطلاء الأبيض، تظلل الأبواب الخمسة التى تقود إلى داخل البنك، فيما شعار البنك على يسار المدخل، كوردة ثبتتها البناية فى عروة سترتها!

عشرة من أحواض الزروع والنباتات، تأخذ شكل مكعبات إسمنتية

أمام المبنى، مدعية. . متظاهرة بأنها ـ هنا ـ للتجميل، بينما وظيفتها الحقيقة، هى صد، أو مقاومة أية محاولة للاقتحام من جانب أعداء البنك من البيئيين، والنقابيين، وكوادر ونشطاء حقوق الإنسان، ومن حذا حذوهم من قوى اليسار الجديد، أعداء العولمة، والسوق الكبيرة!

وما أن دلف «سيد» من أحد الأبواب الزجاجية للبنك حتى وجد نفسه فى الباحة الشهيرة، التى طالما خبرها، وتسكع فيها!

يسارًا. . . يجلس أربعة من موظفى الاستقبال والأمن، على منصة، وإلى جوارهم، مونيتور يراقبون به الداخل والخارج، فيما تتدلى، فوق رءُوسهم أعلام كل دول العالم بألوانها الزاهية الفاقعة. . وعلى حائط كبير من خشب الماهوجنى، يبرز شعار البنك، بحروف معدنية براقة: «حلمنا. . عالم خال من الفقر»!

تصميمات فنية تجريدية، مثبتة على الحوائط، لتدعيم جو ما بعد الحداثة، وتأكيد الشائعة القائلة بأن الغد سيكون. . «أفضل»!. . أولها يسارًا ـ على جانب المدخل ـ مكون من ثلاثة أعمدة خشبية متوازية بالعرض، على أحدها تلتف بقايا نسيج قديم مهلهل كالجوت، وعلى ثانيها ينبت شعر طويل خشن، ومنتصب كالقش، أشبه بفرش البلاط، أما الثالث فأعرض ـ قليلاً ـ ويبدو كآلة نفخ عملاقة من النوع الذى يستخدم فى التبت، أو فى بعض مناطق أفريقيا. . والتكوين كله يعد نموذجًا كلاسيكيًا للأعمال الفنية، التى ـ

عادةً ـ ما يشير مبدعوها، إلى عكسها قيمًا، وفلسفات، شديدة التشابـك، والتعقيـد، كالصـراع ـ فجـرًا ـ بـين كينونـة الإنسانـة وصيرورته، داخل حافلة عامة، منزوعة الكلاكس، تتحرك ببطء، فى إحدى دول العالم الثالث، فيما المراكب الشراعية وطيور الوروار تحيطها من كل جانب!!

أربعة ممرات إليكترونية، تقود إلى البوابة الأمنية، على يمينها فازة شينواه كبيرة، تبزغ من فوهتها، عشرات السيقان الغامقة الخضرة، لباقة من زهور «الفريزيا»، و«الكازابلانكا»، و«البيونيس» و «الجاربر داسيس» بألوانها. . الأبيض والبمبى والأزرق، والأصفر، وبحيث تبدو، كأنها لوحة لأحد التأثيريين العظام، خارجة على سياق وطعم المكان كله، والذى يهيمن عليه حس تجريدى طاغٍ!

وبعد البوابة الأمنية. . مسقط كبير، بارتفاع المبنى، مسقوف بفلنكات حديدية، بيضاء، تصل بينها ألواح شفافة من الزجاج، تسهم فى إضاءة طبيعية ساطعة للمكان، لتبهج قلوب الزائرين من دول العالم الثالث، أو تسعد المتسكعين على المقاهى المتناثرة فى فضاء المدخل، من عناصر السلاطة العرقية، لموظفى البنك، الذين يتيهون بكونهم عرّابين لشعوبهم، وبلادهم النامية، غير الفاهمة، لأصول التعامل مع المؤسسات الدولية، المالكة، لحق منحهم شهادات إجازة، تضمن لهم قدرًا من الحياة ليعيشوه!

منوران ـ على اليمين واليسار ـ يفضيان إلى بدروم البنك الدولى؛

حيث حوضان أزرقان كبيران، مملوءان بالمياه، يستقبلان أكثر من سرسوب يتدفق عبر عدة مزاريب، وعلى جوانب الحوضين، وفى منتصفهما، بضع نافورات، تندفع منها المياه إلى أعلى، بدرجات متفاوتة من القوة، وصوت ارتطام الماء على سطح الحوضين، يحدث جلبة، وطشطشة، ووسوسة لا مزيد عليهم، وهم ـ جيمعًا ـ يرطبون القلب، ويثيرون فى مخيلة المرء أفكارًا كثيرة، تلائم طبيعة المكان، عن انهمار الفلوس، كالمطر!! والخير الذى سيهبط على الرءُوس من السماء!

ثم تمثال «ريفر بلايندنس» الذى يشير إلى مشروع البنك ـ فى عديد من الدول الأفريقية ـ لرعاية العميان، وهو من نوع المشاريع الإنسانية، التى تسهم فى التجمل، ووضع الرتوش لصورة إنسانية، يرسمها البنك لنفسه، فى مواجهة موجة عداء عالمية غامرة!

ممر إلى اليمين يقود إلى قاعة الاجتماعات، والتى تتوسط مدخلها كرة أرضية ضخمة بالألوان الكحلى والطوبى، بدرجاتهما المتنوعة.

ثم دَرَجٌ نزل «سيد» عليه بخطى واثقة، متجهًا إلى المطعم الذى يتسع إلى ـ حوالى ـ ألفىّ شخص، وتتناثر فيه الكراسى الحمراء، والخضراء، فوق أرضية رخامية غامقة، وعلى إحدى مناضده، كان «بينچامين جرين»، و«جورج مشعلانى»، يرفعان أيديهما، حتى يراهما «سيد»، الذى اندفع نحوهما فى بشر وبشاشة.

وبعد التحايا، والسؤال عن الأخبار، دخل «بنچامين جرين» فى

الموضوع ـ مباشرة ـ قائلاً أن «چينيفر» اتصلت به من القاهرة، وشرحت له القصة، وأنه ـ منذ المكالمة ـ أعد تصورًا لكيفية الحصول على موافقة البنك، خصوصًا إذا ما تم طرح المشروع بوصفه مدخلاً لمواجهة البطالة، ومن ثم العنف فى المنطقة، أو معبرًا للتعاون الإقليمى، وبالتالى الاستقرار فى الشرق الأوسط.

وكان «سيد» شديد الحرص، على إظهار موافقته، بل واستحسانه، بهز الرأس، وبرفع إبهامه إلى أعلى، وبتبادل إشارات ـ لا معنى لها ـ مع «چورچ»، لإظهار الإعجاب بما قاله «بينچامين»!

وفى الطريق إلى البوفيه المفتوح، انطلق «چورچ» فى حديث متحمس، ليؤكد أن المسائل الإجرائية، فى IFC (المؤسسة التى تعطى قروضًا للقطاع الخاص) هى لعبته، وسوف تبدأ الخطوات معها، بتقديم دراسة جدوى قوية، ومحكمة، تشتمل على التكلفة، وتحدد ما سوف يتحمله رجال الأعمال المصريون من مجموعة «هشِك» من حجم التكلفة الكلية، ومن ثم يتحدد حجم المبلغ المطلوب من البنك، كما سوف تذكر الدراسة الطريقة، التى ستسدد بها مجموعة «هشِك» مبلغ القرض.

وأضاف «چورچ» مسترسلاً فى حماس: «ولابد ـ بالطبع ـ من رسم وتحديد العلاقة بين السياحة، والبيرة، وبرمجيات المعلومات، وهى التى يمكن أن تحددها دراسة الجدوى، فى تطوير إدارة الشركتين

اللتين سيتم شراء أصوليهما، باستخدام برامج فائقة التقدم للكمبيوتر».

وأكد ـ واضعًا اللمسات الأخيرة على لوحته، أو خطته: «ثم إن المُنتَج الذى تروجه شركة البيرة يمكن أن يصادف طلبًا كبيرًا ـ على المستوى الإقليمى ـ فى منطقة (مترنحة) بطبيعتها، أما بالنسبة للسياحة، كمجال لعمل المجموعة، فإن الترويج لرحلات تشمل مصر، وإسرائيل، والأردن.. فى أوروبا، وهنا فى أمريكا، سوف يكون عمادها، وأساسها».

وَتَدَخَّل «جرين»؛ ليقول: «إن البنك سوف يرسل ـ بعد ذلك ـ فريقًا كاملاً متخصصًا فى شؤون الشرق الأوسط إلى مصر، لدراسة الموضوع على الطبيعة».

ويتبادل الثلاثة نظرات صامتة تلتمع بالخباثة، ثم يقولون فى نفس واحد ضاحكين:

«وسوف تقوم البعثة بلقاء المسئولين فى مصر، الذين سيؤكدون أن المشروع عظيم وواعد.. وسيصورون اللقاءات فى برامج تليفزيونية، تتخذها دليلاً على روعة مناخ الاستثمار فى مصر».

ثم يقهقه الثلاثة، مع هز الأكتاف، والإشارة بالأصابع إلى بعضهم البعض، ويواصلون: «كما ستساهم البنوك المصرية مع مجموعة «هشِك» فى التكاليف بعد أن تتأكد من مركزها المالى».

.. ثم يستلقون على أقفيتهم من الضحك، ويواصلون أيضًا: «وستستوثق البعثة من أن المستثمرين أعضاء مجموعة «هشِك» ذوو سمعة طيبة، وأن السوق ـ فى المنطقة ـ ذات احتمالات ممتازة».

ويلتقط الرجال أنفاسهم بصعوبة، ثم ينفجرون ضاحكين ـ مرة أخرى ـ وأقدامهم تدبدب على الأرض، فيما «چورچ» يكاد يسقط من على كرسيه، ووجه «جرين» يكتسى حمرة محتقنة، على حين تسيل دموعه على الخدين فى خطوط مقوسة ومتعرجة:

«وتعود البعثة إلى هنا، لتقدم تقريرًا إلى البنك اسمه Back to office report، ويوافق البنك على القرض».

وبغتة يتوجه «جرين» إلى «سيد» سائلاً: «كم ستطلبون فى هذا القرض؟»، فيجيبه: «مائة مليون دولار».

.. ثم يتبادل الثلاثة طاقمًا آخر من النظرات المترعة بالمكر، وينخرطون من جديد فى سيمفونية عاصفة من الضحك، بينما أنظار ضيوف مطعم البنك الدولى تتجه إليهم، مصحوبة بابتسامات أحيانًا، أو هزات رأس حاسدة أو مستحسنة أحيانًا أخرى، وبانطباع ـ فى جميع الحالات ـ يفسِّر ما يجرى بأنه يعكس جو الانشراح الأزلى الذى يسود نفس زوار هذا المبنى، أو العاملين فيه، والذى ـ فى ذاته ـ لابد أن يكون تعبيرًا عن غدٍ.. «أفضل»!!

وفى الفندق سارع «سيد» بالاتصال بعبده تليفونيًا، ليزفَّ إليه الأنباء، على حين أخبره «عبده» أنه سيعمد إلى المضى فى تنفيذ

خطوات المشروع فى مصر، وتحريك مجموعة «هشِك» لتحديد الشركات المزمع شراء أصولها، أو لسبك مسألة السمسرة فى سعر هذه الأصول.

كما أشار «عبده» إلى أن أخبار «هشِك» تملأ التليفزيون، حيث أقنع المستثمرين من أعضائها، «بالرش» على بعض المعدِّين، والمذيعات، ورؤساء القطاعات، ومديرى القنوات، الذين استدعوا ـ على الفور ـ الشخصيات الخمس المبشرة من ماسبيرو بالجنة، والتى تفتى ـ آناء الليل وأطراف النهار ـ فى جميع الموضوعات، وعلى كل القنوات.. محلية، وفضائية، ومتخصصة، فجاءوا ـ على عجل ـ أحدهم بفوطة الحمام وصابون الحلاقة على ذقنه، والآخر بالروب وقدمين حافيتين، والثالث بالفانلة الداخلية وسروال البيچاما، والرابع بسترة البيچاما دون سروالها، أما الخامس فكان مكتمل الأناقة والاستعداد، إلا أنه كان من دون رأس، إذ اعتاد أن يترك دماغه فى مبنى التليفزيون، بعد أى تسجيل كأمانات، وحتى يقوم المسئولون بملئها بما يرون، أو يريدون، ثم عند استدعائه للتسجيل مرة أخرى، يمر ليأخذها من موظف الاستقبال فى «ماسبيرو»، ويقوم بتركيبها على رقبته فى لحظات، ليصبح جاهزًا للتصوير على الفور!

وقد بدأت مجموعة المبشِّرين من ماسبيرو بالجنة ـ نتيجة الرَّش المتواصل من «هشِك» ـ عزفًا وإنشادًا متصلاً حول المجموعة

الاستثمارية فى جميع البرامج، باعتبار «هبشِك» علامة صحة للاقتصاد الوطنى، وكدليل على أن مصر اليوم فى عيد!

كما ظهر مستثمرو المجموعة فى بعض برامج الحوار، مع ترتيب خاص، يقوم ـ بموجبه ـ كل العاملين فى شركاتهم، حتى السكرتيرات، والسعاة، وحراس الأمن، ومنادى السيارات بالاتصال أثناء البرامج، وترديد عبارات من طراز:

«منورين الشاشة». . و: «اللهم صلى على النبى. . مصر ح تبقى فوق العالم دى كلها. . ميهمكوش م اللى بيحقدوا واللا بيحسدوا. . العين صابتنا ورب العرش نجانا. . وربنا ح ينفخ فى صورتنا بإذن الله».

. . و: «أنا بابعت التحية لسيادة الوزير، ولكل أسرة البرنامج. . وللكابتن الجوهرى. . وكل الناس اللى ملت الاستاد النهارده. . وباهدى. . سلامى لماما فى جنيف، وبابا فى كفر مويس. . وبوجّه سؤال للمسئولين. . ليه ـ لغاية النهاردة ـ مافيش أغنية لرجال الأعمال. . هه. . هه؟. . واللا إحنا بس كنا بنغنى للفلاحين والعمال. . أيام المعتقلات والتعذيب. . إن شاء الله ربنا ح يكرمنا».

. .و: «والله أنا مش عارفة أقول إيه. . وأنا شايفه الناس دى كده. . اللى بتحب مصر كده. . واللى بتشتغل كده عشاننا. . الواحد مكسوف من نفسه. . إحنا بس همنا على بطننا. . وعمالين نخلف. .

وهما بيشتغلوا ليل ونهار كده. . . أنا. . . أأأنا. . . . (صوت زغرودة مدوية طويلة)»!

وقد قدمت هذه السلسلة من البرامج التليفزيونية تحت شعار واحد، وضعه «عبده دسوقى» بنفسه، وهو: (مصر هبة رجال الأعمال)!

كان «سيد» على موعد ـ ذى طبيعة مختلفة ـ فى بار فندق «فور سيزونز» الذى ينزل به، فى منطقة «چورچ تاون» ليلتقى «دلال الخضرى»، وهى مَنْ اختارها لتكون ضيفته، وليحتفل معها، بهذه الأمجاد التى لا يمكن الإحاطة بجوانبها.

نزلت «دلال» من سيارة تاكسى صفراء أمام البوابة الأمامية للفندق، حيث قام أحد حراس الباب، مرتديًا جاكيت رمادية مشقوقة الذيل، وسروال أسود، وكاب رمادى، وقفازين أبيضين، بفتح الباب لها، متمتمًا بعبارات التحية التقليدية، ومختلسًا نظرة إلى جمالها، الذى يطلق عليه فى كل اللغات الحية: (فتّاك)!

اخترقتْ ممر الإستقبال الطويل، الذى يقود إلى البار المفتوح ـ من دون حوائط ـ على لوبى الفندق، محاطة بحرس شرف من نظرات الإعجاب و«الدهولة» الرجالية، أو نظرات الغيرة و« القرشنة» النسائية ـ إذ كانت «دلال» فى قمة شياكتها وتألقها، ليلتها، مرتدية ثوبًا للسهرة من تصميم «فالنتينو»، اشترته، صباح يوم هذا اللقاء، خصيصًا من محل «ريزك» فى كونتكت أفينيو، مقصد النسوان، الأنيقات، الأرستقراطيات، وهو مؤلف من شرائح متفاوتة العرض

من الجلد، والقماش الأبيض والأسود، فى تصميم تجريدى بديع، على حين تتناثر عليه ـ من دون نظام ـ بقع مختلفة الحجم من الترتر اللامع، الأبيض والأسود، وشق طويل فى الثوب من الأمام، يصل إلى أعلى نقطة مسموحة من الساق، ويكشف أجزاء من السمانة والركبة والفخذ، أثناء المشى ـ بطريقة متقطعة، بدت كومضات صواعق كهربائية سريعة، تستقطب أعلى درجات الإحساس عند المراقبين، رجالاً فى دهولة، أو نساءً فى قرشنة، والصدر على شكل حرفV كبير، يكشف عن معظم ما تعارفنا على أن الملابس اختُرعت ـ أصلاً ـ لتستره، أما الظهر فعبارة عن سيور متقاطعة باللونين الأبيض والأسود.. وقد صففت «دلال» شعرها على شكل شينيون، فيما ارتدت على رقبتها ورسغها، إكسسوارًا عريضًا من الفضة المكسيكية المشغولة، بما يشبه شكل نساء الأمازون القويات، ووضعت فى أصابع يديها عددًا من الخواتم الفضية الكبيرة، تزينها صور محفورة لطواطم أمريكا اللاتينية، ورموز سحرتها.. حقيبة اليد صغيرة جدًا وشفافة، تحتوى هاتفًا محمولاً، وأصبع روج وسلسلة مفاتيح، والصندل فى القدمين بسيور بيضاء وسوداء، وبكعب يرتفع اثنى عشر سنتيمترًا عن الأرض!

وبمجرد أن وصلت «دلال» إلى مدخل البار، حتى استقبلتها «يواندا» مشرفة البار، وقادتها إلى حيث يجلس «سيد»، بناء على توصيته، والذى ما كاد يرى «دلال»، حتى أقبل عليها محييًا، ولاثمًا يديها فى حنان!

وعلى كرسيين عاليين، بأرجل طويلة، ضمن تسعة كراسى أخرى تحيط البار، وتصنع الحلقة الحميمية التى يتجاور فيها الشاربون جلس «سيد» و«دلال»، يتناولان كأسين من مشروب التاكيلا سان رايز، ويلحسان معه بعض ذرات الملح، التى وضعاها على ظهرى يديهما، كالتقليد المرعى المتبع، فى التعامل مع هذا المشروب الرهيب، ليستطيع الشارب، التغلب على حلاوته، وتهييج الشهية للشرب، فضلاً عن الاستمرار فيه!!

العينان فى العينين صعودًا بالكأس إلى الشفاه، وهبوطًا إلى الملح فوق ظهر اليد.. وكلام كثير.. كثير تشى به النظرات، سواء البلدى لدلال، أو المرتدة إلى أصلها البلدى لسيد!

البار كله خلية نحل، تشغى بكل الجنسيات التى تفد إلى هذه المدينة، للعمل أو المفاوضات أو الدراسة أو حضور المؤتمرات، وباقات من العرب يتناثرون على المناضد متحدثين بصوتٍ عال، أو ناظرين بثقة وامتلاء، باعتبارهم أُسود القبائل، وصقورها، وبعض طالبات جامعة چورج تاون القريبة، جلسن لاحتساء مشروب، والثرثرة عن همومهن الصغيرة.. النوافذ الكبيرة تطل على قناة C & O، أو شيسابيك باى، و أوهايوريفر، وهى قناة ضيقة تسير فيها مراكب تشبه جندول فينيسيا... ومساحة الموكيت الرحبة متداخلة الألوان، الزرقاء، والسماوى، والوردى، تنكشف ـ فجأة ـ عن مربع تتزاحم فيه نباتات الظل، «النخيل»،

و«اليوكـا»، و«الهيـدرا»، و«الكروتـم»، فيمـا «سالـين هامـر» عازفة البيانو البارعة، تستحيل كتلة من الأعصاب، تصب إحساسًا دافقًا فى أطراف أصابعها، التى تدق على مفاتيح آلتها، فتكتسح أنغامها المكان، موجات تلو موجات، وترغم الجميع على التعلق بنوع الإحساس الذى تشيعـه.. حزنـًا ـ كـان ـ أو خوفـًا، أو فرحـًا، أو حماسًا!

وما أن تنتهى، حتى يصفق الجميع، الجالسون على المناضد، أو المعتلون كراسى البار، بينما تأخذ ـ هى ـ طريقها إلى البار لتناول كأس من النبيذ.

أما «دلال» و«سيد»، فكانا قد وصلا إلى درجة عالية جدًا، من الاستمزاج والنشوة، من فرط معانقتهما للتاكيلا، أو عبر ما تبادلاه مـن رسـائـل عاطفيـة، وحسيـة.. بالنـظـرات.. باللمـسـات.. والهمسات.. وحتى بالصمت الرهيب!

ثم اخترقت «دلال» حاجز السكوت الذى ران على المكان، بأن طلبت من «سيد» أن يأخذها معه إلى مصر، لتعمل فى مشروعه الجديد، أو فى مكتبه للاستشارات، فهى قد تعبت من العمل فى ملهى «ذى كوكيت كاميل»، ومن الرقص عمومًا، كما أنها لا تطيق فراقه، أو الإبتعاد عنه لحظة واحدة.. ولا تعرف ما الذى ستبقى لتفعله فى هذه المدينة المليئة بالقرافات، سواء كانت قبور جيفرسون، أو لنكولن، أو روزفلت، أو كينيدى، أو حتى متطوعى فيتنام! وفوق

ذلك، فإنها تحب «سيد».. تحبه.. تحبه... تحبووووووووووو!

علا صوتها بلسان أفلته السكر من عقاله، بينما سيطرت على «سيد» فكرة نميسة، خبيثة، وهى أن «دلال» يمكن أن تكون معاونًا ممتازًا له فى مصر، كما كانت بالنسبة لچورچ، وبالنسبة له فى واشنطن، وبالذات مع وفود رجال الأعمال القادمة لمباحثات مع IFC.

ولكن مسألة اعتزالها الرقص هى أمر غير مقبول بالمرة، وسوف يعتبرها زلة لسان؟ دفعتها إليها عصبيتها، إذ أن الرقص هو من ألزم اللزوميات، فى تحريك البيزنيس والأعمال، وخلق «مناخ» جيد للاستثمار، ثم إن وجود راقصة إلى جواره، فى مواجهة المجتمع السياسى، والأكاديمى، أصبح أمرًا مطلوبًا وضروريًا، وهو صاحب النظرية المشهورة عن علاقة أنظمة العالم الثالث الثورية بالرقص الشرقى!

وبهذا المعنى، وافقها «سيد»، مؤجلاً التنفيذ إلى ما بعد الاتفاق مع البنك الدولى، ولكنه اشترط عليها، أن تدلله فى هذه الليلة ـ بالذات ـ وتحايله مثلما كانت تفعل أيام زمان، وتغنى له احتفالاً بصعوده عدة درجات ـ دفعة واحدة ـ فى سلم المجد..

وقالت «دلال» ثملة بخمر التاكيلا، وخمر حلمها الذى عاد يتجدد:

«سأغنى لك الأغنية نفسها التى شهدت مولد علاقتنا..»، وأخذت تدندن هامسة، ثم انطلقت شاديةً ملعلعة:

«سنتين وانا احايل فيك.. ودموع العين تناديك»....

وكان «سيد» يغنى معها، ويتمايل، ويرفع ذراعيه إلى أعلى، فيما يطقطق بسبابته، وإبهامه.. وعلا صوت الإثنين - أكثر - واستلفتا انتباه الحضور، واقتربت البيانيست «سالين هامر»، تستمع - بانبهار - إلى غنوة «دلال» و«سيد»، فانتهبت «دلال» إلى وجودها، وترجمت كلمات الأغنية على اللحن نفسه، داعية إياها للمشاركة:

"Two years and I'm trying to convince you.......

And the eye tears are calling for you!!"

ثم عادت إلى العربية، وهى تُسبِّل لسيد وتغمز له، متمايلة، نشوانة... وكراقصة عريقة فى الحركات، أخذت تمثل معانى الأغنية وهى تردد كلماتها، فتشير بأصبعيها السبابة، والوسطى، وهى تقول: «سنتين»، ثم تشير إلى نفسها وهى تقول «وأنا»، وتعود لتضم كفيها تحت ذقنها كالهنود فى حركة رجاء مبتذلة، وهى تقول: «أحايل»، ثم - فى فورة متأججة - تشير إلى «سيد» مرتين، وهى تردد: «فيك».. لتصبح الجملة الحركية، والغنائية، على بعضها: «سنتين وأنا أحايل فيك»!!

والجميع فى البار اندمجوا مع «سيد» و«دلال»، فيما أخذت «سالين هامر» تراقص أحد الوزراء الديمقراطيين السابقين، تصادف وجوده فى المكان، وبعض الحضور يرددون الكلمات بالإنجليزية، والبعض الآخر بالعربية، واستحال الفندق حريقًا يشتعل بالسعادة،

وانتهت الليلة بدلال تحمل صندلها فى يدها، وتسير حافية مترنحة، إلى جوار «سيد»، فى الطريق إلى المصعد، الذى حملهما إلى غرفته..

. . . .

وفى الشهور التالية، جاء وفد مجموعة «هشك» ليقدم دراسة الجدوى إلى البنك الدولى، وأرسل IFC بعثة إلى القاهرة لدراسة الموضوع، وهى التى اجتمع بها المسئولون فى مصر، وأكدوا أن المشروع عظيم، وصوروا اللقاءات فى برامج تليفزيونية، اتخذتها دليلاً على روعة مناخ الاستثمار، كما ساهمت البنوك المصرية، مع مجموعة «هشك» فى التكاليف، بعد ما تأكدت (هكذا قالت) من مركزها المالى، كما استوثقت البعثة من أن المستثمرين أعضاء مجموعة «هشك» ذوو سمعة طيبة، وأن السوق ـ فى المنطقة ـ ذات احتمالات ممتازة، وعادت البعثة إلى واشنطن لتقدم تقرير العودة إلى المكتب Back to office report.. وهكذا وافق IFC على إعطاء قرض بمبلغ مائة مليون دولار، إلى مجموعة «هشك» البازغة.

. . . .

وفى القاهرة صعد «د. سيد شندى» أولى سلمات الدَّرَج المؤدى، إلى مدخل مكتب التوثيق النموذجى بالقصر العينى يحوطه حراسه الشخصيون المتلفتون، فى عدوانية للمارة، والمستعدون ـ فى لحظة ـ

لالتقاط طبنجاتهم، والتعامل مع مايعتقدون أنه الخطر... فيما عبده، ينتظر «سيد» على قمة السلَّمات العشرين المؤدية، إلى مدخل مكتب الشهر العقارى..

وعلى الضفة الأخرى من شارع «أمين سامى»، كان المخبول مازال يجرى، ساحبًا صندوقه الكارتون وراءه بدوبارة، حيث يطل القط المتسخ الأجرب من على إحدى حوافه، بينما الرجل يضحك ويصرخ: «حلو.. حلو.. حلو..»!

3 الراقصة
دلال الخضـــرى

«هشّك بِشّـك.. هشّك بِشّـك

أنـا مش ممكن ـ أبدًا ـ أغشّـك» !

كانت «دلال الخضرى»، على موعد ـ هى الأخرى ـ فى مكتب التوثيق النموذجى، بقصر العينى، غير أن طريقها إليه، كان ـ جد ـ مختلفًا!

فقد أصر «عبده دسوقى»، العقل المفكر، واضع الخطة، ومراقب التنفيذ، على أن تحضر «دلال»، كل خطوات ومراحل المشروع ـ وحتى الإجرائية أو القانونية منها ـ كيما تعيش «الأجواء» وتندمج فيها!

فعبده هو مثال شديد التبلور، والاكتمال ـ للازدواجية، ولنموذج بشرى، أخضع نفسه تمامًا، كما أخضع الآخرين، لعناصر أجندة علنية، أمامية وظاهرة، ملامحها.. فاضلة ونبيلة، ووطنية، بينما كان عماد أو صلب، تكوينه النفسى والإنسانى، هو أجندة خلفية، كتوم، وسرية، بنودها صفقات السروال، والمراين والتليفزيون، أو الانتقال من مرحلة الجاز، والسكر والزيت، إلى مرحلة العسلية، وبراغيث الست، أو علاقته الخفية المعقدة بعطيات.

ولما كانت، هذه الازدواجية، تقوم ـ أساسًا ـ على إتقان فن التمثيل، ودقة الأداء الدرامى، فقد اخترع «عبده» نسقًا إداريًا، وأسلوبًا فى الحياة، وفى العمل يقوم على الاندماج والتقمص، بحيث رسم ملامح صورة نمطية لنفسه، على امتداد الوطن، وفى

عمق أحاسيس مواطنيه، بوصفه إنسانًا طيب القلب.. نقى السريرة.. زاهدًا الشهرة والمال.. منغمسًا إلى حد التشبُّع - فى هموم الناس وأوجاعهم، دموعهم، وجروحهم!

وبغرض وضع المزيد من الخطوط، تحت عناصر هذه الصورة النمطية، لتأكيدها وتثبيتها، استحدث «عبده» بابًا فى الجريدة، لجمعية (أصدقاء عبده) بفروعها فى مصر، وحول العالم، ومهمته هى التعامل مع مشكلات الناس فى بر مصر وحلها، وخلق جسر مع المصريين فى الخارج، وليصبح الساحة التى يمارس فيها رسم وتأكيد ملامح صورته كقديس، يعيش فى زمن امتلكت فيه الشياطين، وقوى الشر، مفاتيح الحياة، وأقدار البشر!

ومثل هذا النسيج الدرامى، الذى أدى «عبده» دوره من خلاله، كان يحتاج بالقطع، إلى مواهب ومَلَكَات خاصة، إحداها هى التهدج الدائم، أو الاختيارى، بحسب مقتضيات الموقف، أو القدرة على استدعاء الدموع للمآقى بالأمر الإدارى المباشر، الذى لا يحتمل - فى مواجهته - ترددًا أو لجاجًا، وبحيث تغرورق العينان بهذه العبرات، من جانب العين الخارجى لتسيل على الصدغ، أو من جانبها الداخلى لتسير على الأنف، حسبما يرى المؤدى كيفية التأثير المطلوب إحداثه فى الجمهور!

وإذا أراد الممثل مراكمة المزيد من شعور التأثر، عند الملتقى، فيمكنه إضافة «النهنهة» مع ارتجاج الجسم كله، وبخاصة المناطق

الممتلئة، أو «النحيب»، بصوت مسموع، حين يستشعر أن الجمهور بليد الإحساس، بطىء التأثر، لم يعطه الاستجابة المطلوبة، أو رد الفعل المستهدف!

ولا بأس ـ طبعًا ـ من إضافة ملكة الفنان الموهوب، فى أن يشف، ويرف وهو يوجِّه الحديث إلى شخص بعينه، حتى يُدخِل فى روعه، أنه أمام كائن متسامٍ، طاهرٍ، مخلوقٍ، من، لبن، وعطر، وعسل، ونور!!

وبالإضافة إلى كل هذه المنظومة الدامعة، فقد يكون من المناسب، بل مؤكد أنه مناسب أن «يخنفر» الإنسان، من تأثير اللحمية، أو إذا لم تكُ لديه لحمية، فليتظاهر «بالخنفرة»، مع الحرص على تثبيت تجعدات الجبهة، ورفع الحاجبين إلى أعلى، والحفاظ على البياض الشديد للبشرة، بغسل اليدين الهوسى المتواصل، أو بعدم تعريض الجلد لحرارة الشمس، وهو الأمر الذى يفسر حرص «عبده» على عدم الذهاب للجريدة نهاراً.

أما بقية صورة «عبده» النمطية، التى اخترعها لنفسه، وَصَدَّقَها، ثم دعا الآخرين إلى تصديقها ـ عبر أدائه الدرامى الرفيع ـ فكانت حرصه على استخدام وسائل إقناع ذات طابع دينى، كون الدين، عنصر تأثير مؤكّد على الناس فى بر مصر، كما أنه ـ بحكم التعريف ـ التعبير الأكثر وضوحًا عما هو أخلاقى.. ومن ثم، فقد كان من المتعود أن تعمد سكرتيرة «عبده» إلى دخول مكتبه، ما إذا حان موعد

انصرافها، لتخاطبه ـ كما عَوَّدها ودربها بتهدج واغرورواق ـ أمام ضيوفه، أو محررى الجريدة (الذين لا يسمح لهم بالجلوس أمامه، إذ كان يتمتع بإحساس التميز ـ الذى بدأ معه مبكرًا فى قليوب ـ وهو لا يتحقق إلا بأن يكون الأديب الوحيد، وعارِض الأزياء الوحيد، وملك الجمال، وملك الوحاشة... والجالس الوحيد أيضًا) وعادة ما تكون كلمات السكرتيرة، هى: «أستودعك الله الذى لا تضيع عنده وديعة»، فيجيبها ـ شاخصًا ببصره إلى سقف الغرفة ـ فى حالة استلهام مزمنة: «سلام عليك.. عليك السلام»، وقد بلغ من تمكية عبده فى التشخيص، وتمكُّنه من أدائه الدرامى ـ فى هذا المقام ـ أن كل من حوله، قد تمثلوا طريقته فى الاندماج، والتقمُّص، حتى انهالت عليهم عروض المخرجين ليلعبوا أدوارًا أساسية فى المسلسلات الدينية، حيث تم ترشيح أحد محررى باب: (أصدقاء عبده) ليلعب دور على ابن أبى بلتعة، كما تم التعاقد مع إحدى معاوناته لتلعب دور المخنفرة بنت الأشوس!

وعلى الجانب الآخر، فقد بدأ «عبده» كتابة سلسلة من القصص التراجيدية المفجعة، حتى يدعم أركان وملامح صورته النمطية «الإنسانية»، التى اخترعها، وأحسن تصميمها، لتستقر فى أذهان الناس، وليتأكد من أن بنود أجندته الخفية تمت تغطيتها، وإحاطتها بستار من السرية، والكتمان، والتمويه، يصعب اختراقه، وربما يصعب الاقتراب منه.

وقد كرس «عبده»، بهذه القصص المفجعة، الفارغة من أى عمق عقلى أو فكرى، ثقافة الخادمات، اللاتى تستهويهن الأفلام الهندية، وتتحدد قيمة أى عمل درامى، أو فنى لديهن، بحجم الدموع التى يذرفنها، أثناء مشاهدته، أو تذكر تفاصيله - بحيث أصبحت تلك الثقافة، وعمادها التصعب والمصمصة، تحت وطأة قوة نفوذ الخادمات فى الحياة المصرية المعاصرة - هى الثقافة السائدة، حتى عند هوانم المحروسة من قارئات جريدة «خوفو»!!

وهكذا.. فإن هذا الحجم الكبير الذى تحتله مهارة التمثيل، بفرعيها:

(التقمُّص) و(الاندماج)، فى أداء «عبده» العلنى، أفضى إلى تركيزه على المعنيين، فى كل تحرك إدارى يقوم به، مقرًا فكرة ضرورة المعايشة الكاملة من المشاركين لجو العمل، وهو ما دفعه إلى الإصرار على حضور «دلال الخضرى» جميع مراحل المشروع، حتى القانونية منها، والإجرائية؛ كيما تعيش «الأجواء» وتندمج فيها!!

وكان هذا الظهور العلنى، والدائم لدلال، مصدر مشكلة حقيقية، لسيد شندى، فقد أصبح عليه أن يبرر ظهور «دلال» فى الصورة أمام زوجته!

وأمعن «سيد» التفكير، بحثًا عن مبرر وجيه، ومقنع، يفسر به لجينيفر، ظهور شخصية «دلال» فى حياته بشكل علنى، ومتكرر، وخصوصًا مع أهمية، وخطورة الدور الذى ستلعبه فى مُسير أعمال

«هشِك». . ثم اهتدى إلى أن أفضل طريقة هى: «الصدمة النفسية الكهربائية ومحاولة مضاعفة قوة الصعق العاطفى، بوصلها بشبكة الربط الموحد، إذا ما تيسر»!

وهذه الصدمة، تعنى ـ بوضوح ـ إطلاع «چينيفر» على الحقيقة، حيث كان تقدير «سيد» أن «چينيفر» ستقبل بظهور «دلال»، مدفوعة بروح براجماتية كاسحة، وأيضًا ببعض عقدها المستحكمة، إذ أنه من الطبيعى أن ترى «چينيفر»، أن الدور المنوط بدلال ـ وبالذات بالنسبة للشركاء المصريين فى «هشِك» ـ سوف يكون دورًا حيويًا، لايمكن الاستغناء عنه، وبالتحديد فى تسهيل الاتفاق، على عملية شراء الأصول، ومن ثم فإن الإبقاء عليها، بل ورعاية هذا الدور، هو ضرورة لنجاح مشروعٍ تعلق «چينيفر» عليه (فضلاً عن بعض الدوائر المؤمنة بفكر التعاون الإقليمى فى واشنطن، أو إسرائيل، أو الأردن ومصر) آمالاً عراضًا، ورهانات كبرى!

وإضافة على ذلك، فإن «چينيفر»، بعقلها الكبير، الراجح، ستكون أكثر ترزنًا، من أن تسقط، فى وهدة إثارة أزمة، أو دفع «سيد» إلى المفاضلة بين خيارين، قاطعين، فإما هى و إما «دلال». . لأنها ـ بالدرجة الأولى ـ منسحقة، أمام دمامتها، وبدانتها، وحاجبيها المهوشين، المنكوشين، وهى تعرف أنها إذا وضعت ظهر سيد إلى الحائط أمام خيار كهذا، فسوف يختار «دلال»، قولاً واحدًا. . حاسمًا. . وقاطعًا!

وصدقت حسبة «سيد» بالضبط، فلقد رأت «چينيفر» ـ كما توقع ـ أن «دلال» هى حتمية تاريخية راقصة، لافكاك منها، ومن ثم فيجب أن تقبلها، وتعترف بها، قبل أية قوة، قبل أى شخص، حتى لا تظهر، بمظهر الخاضعة، المجبَرة، المرغمَة على تجرع كأس «دلال»، مسحوقة الإرادة، ذليلة الفؤاد!.

وبهذه الروح الرياضية، والمنطق البراجماتى، وقبلهما الحسابات العقلية، قبلت «چينيفر»، بوجود «دلال»، ضاغطة على أحاسيسها، وكرامتها، مانحة الأولوية الأولى، والأولوية الأخيرة، لإتمام مشروع صناعة المعلومات، والمشاريع الشقيقة للبيرة والسياحة، والتى تتم ـ جميعًا ـ فى إطار فكر التعاون الإقليمى، برغبة ورعاية وكلائه التجاريين، والسياسيين.

«دلال». . . أخذت طريقها إلى مكتب التوثيق، فيما رفعت هاتفها المحمول على أذنها، وهى تودود لعبده، الذى تعرف ـ حق المعرفة ـ أنه المرجعية رقم واحد، حتى الآن، حين يكون الأمر متعلقًا بالمشروع، بينما كانت يدها الثانية، تستعدل وضع الشال المبرقش كجلد النمر، على كتفها، وهى تتأهب لأن تغلق باب سيارتها، البى. . إم. . دبليو.

داست «دلال» بمشط قدمها اليمنى، على حافة السلمة الأولى فى درج مكتب التوثيق، ومدت قدمها الأخرى، إلى السلمة الثانية، فى

صعود رشيق، متوافق، ومتبختر، يليق باسمها اللامع فى عالم الفن، ووسطها العامل فى ساحة الرقص.

وربما كانت تلك، هى المرة الأولى، التى تشعر فيها «دلال»، أنها تسير فى طريق سالك، ليست مجبرة فيه، على تغيير المسار، أو تحويل المجرى، تحت وطأة ما اصطُلح على تسميته: (الظروف)، وهى التى كانت لا تعنى، بالنسبة لها، سوى عوامل، غامضة.. مجرمة.. ومتوحشة، لم تستطع - أبدًا - بمشاعرها، وأفكارها البسيطة، أن تستوعبها، أو تتفهمها، ولكنها انقادت لهذه الظروف مسالمة، ومستسلمة، لتدفعها إلى طريق وعر، أو مسدود، ثم تجبرها، وترغمها، على تغيير اتجاهها، وتحويل مجرى مسيرتها، إلى طريق آخر، أكثر وعورة، وانغلاقًا.

وقد كان اللقاء الأول، بينها، وبين (الظروف) عندما جاءت طنت «حياة» وابنها «صلاح»، لزيارتهم فى شقتهم، بشارع أحمد سعيد، فى العباسية، ويومها أحست أن هناك استعدادات، غير طبيعية فى منزلهم، إذا لم تستطع والدتها صبرًا، وسارعت لتقف على عتبة باب الشقة، لتبادر بسؤال أبيها، وهو يصعد درج البناية، عائدًا من عمله بديوان وزارة المالية، فى لاظ أوغلى: (جبت الجاتوه) فأجابها بهز رأسه، والإيماء إلى علبة يحملها فى يده، عندما لم تسعفه الأنفاس المتقطعة، لمدخِّن محنَّك، بالرد كلامًا.

وقد كان موضوع الجاتوه، هو أبرز علامات، الاستعدادات غير

التقليدية، فى منزل «عبد الدايم الخضرى»، فضلاً عن إبلاء زوجته بلاء حسنًا، منذ طلعة النهار، فى مسح بلاط الشقة بالفنيك، وترويع قطط السلم، وزجرها من آن إلى آخر، حتى تبتعد عن مدخل البيت، ثم إصرارها الكاسح، على أن ترتدى «دلال»، ثوبها الفستقى، الذى أهدته إليها، أبله «آمال» ـ خالتها ـ عندما عادت من السعودية، حيث كانت تعمل ممرضة، وهو الثوب الذى خصصته أم «دلال»، كيما تلبسه ابنتها ـ فقط ـ فى المناسبات ثقيلة العيار، كعيد الفطر، وشم النسيم، ومولد النبى، وعيد الجلاء!

وفى المساء، حمّلتها أمها صينية نحاسية، اجتهدت فى تلميعها، بفصىّ ليمون، وقد رصت عليها، أكواب الكازوزة المثلجة، ثم لكزتها فى ظهرها، موسوسة فى أذنها، بأن تبتسم، مردفة: «جاتك ضربة فى قلبك» كعادة أمهات هذه الشريحة الاجتماعية، فى توبيخ بناتهن، والإلقاء عليهن بلائمة مصير البخت المائل، الذى يمكن أن يتهددهن، كونهن غير عارفات لأصول الشغل، التى تكفل لهن اصطياد عريس ملء هدومه!

وأحست «دلال»، وهى تدور بالصينية على الضيوف، تتابعها نظرات طنت «حياة»، وابنها، أن الابتسامات المتبادلة، بين أمها، وأبيها، وأمها والست «حياة»، و«صلاح» وأمه، والتى تترافق مع هز الرءُوس ببطء، هى بمثابة سيمٍ دال، على مشروع خطوبة، يوشك على الانطلاق..

وكان «صلاح الدين عطا الله» ـ بعد تخرجه فى كلية الحقوق،

واجتيازه اختبارات القبول فى وزارة الخارجية، ثم الدراسة فى المعهد الديبلوماسى - قد أصبح ملحقًا ثالثًا، يستعد لأولى مهامه الديبلوماسية، فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد رأى أن يتزوج، قبل سفره، بهذه الطريقة التقليدية، العقلية، إذ أن استكمال الصورة الاجتماعية، بالنسبة له، كان أمرًا حيويًا، سواء فى تقديم نفسه إلى رؤسائه، أو فى تسهيل حضوره الشخصى، والمهنى، إلى مناسبات، ومحافل كثيرة، تعد المجال الحيوى، الطبيعى، لعمله كديبلوماسى، ولبناء شبكة علاقاته، وأواصر صلاته، بالبيئة التى يعمل بها.

وما أن أسرَّ إلى أمه.. الست «حياة»، برغبته فى الزواج، حتى رشحت له «دلال»، ابنة الأستاذ «عبد الدايم الخضرى»، التى زاملت أمها فى مدرسة السنية، بالمبتديان، قبل أن تتركا المدرسة، فى وقت واحد، وهما فى السنة الثانية للبكالوريا، انتظارًا لابنىّ الحلال، اللذين جاءا سريعًا جدًا، ثم واصلت السيدتان رفقة رحلة عمر طويلة فى العباسية لم تفترقا فيها أبدًا، وأنجبت الست «حياة»، ابنها، وأخته «لبنى»، على حين أنجبت أم «دلال» خمسة من الأبناء الذكور غير ابنتها الوحيدة.

وقد وجد «صلاح»، فى الاختيار الذى رشحته أمه، غايته، ومبتغاه، إذ أن «دلال»، كانت جميلة - بمعنى الكلمة - ووصولها إلى السنة الثانية بكلية الآداب، كان يضمن تنوُّرها، وقدرتها، على الاستيعاب والتعاطى - ولو بالحد الأدنى - مع مقتضيات عمله

الديبلوماسى، إلى أن تُصْقَل المهارات اللازمة، والأدوات المطلوبة بشكل كامل.

ثم إن ما فهمه «صلاح»، عن ظروف أبيها ـ الذى كان كاهله ينوء بحمل الأبناء الستة الرهيب ـ سوف يسهل موافقته، على خروج «دلال» من دراستها، وسفرها معه ـ مباشرة ـ إلى واشنطن، لأن الأستاذ «عبد الدايم» ـ حينئذ ـ لن يكون مطالبا فى هذه الزيجة، بأية مصاريف، أو تكاليف للجهاز، ولسوف تشجع الأم، موضوع الخروج من الدراسة، تكرارًا لتجربتها، التى ترى فيها ـ كأى أم ـ النموذج والمثَل، الذى يجب أن تحتذيه ابنتها.

وفوق هذا كله فقد رآها خلسة منذ عشر سنوات ترقص فى عيد ميلاد «جورج» ابن طنت «إيزيس» جارتهم فألهبت خياله، بما لا يقاس، طوال كل هذه السنوات.

وفى أمريكا بدأت «دلال» تتعرف بدقة، حقيقة «صلاح»، فقد تأكدت أنها أمام شخص انتهازى بالسليقة، قد وظف رأسه ـ بالكامل ـ لخدمة تطلعاته الكاسحة التى ترفض حكاية العباسية، والشريحة السفلى، من الطبقة المتوسطة، وصيغ النصف/ نصف، وفكر «الحركرك» الذى يقنع بمجرد الحياة، ولو على شفير العدم، ويسهم ـ بنشاط ـ فى نشر أفكار تدين الطموح، وتستهوله، وتعتبره لونًا، من ألوان التجاوز والبطر!

كان وجود «دلال» فى حياته، باستمرار، وجودًا موظفًا، يمتد

تاريخ صلاحيته، إلى المدى الزمنى، للدور أو الأدوار، التى حددها لهذا الوجود، ومشاعره إزاءها، أو اقتراباته منها، مرهونة بحسن أدائها لما يكلفها به، وكأنها حيوان يُدَرَّب على تقديم نِمْرَة، فى سيرك، فإذا ما أحسن، قدم له المدرب قطعة لحم، أو قالب سكر، أو جزرة، وهو يربت على رقبته، ويمسح على رأسه!

وبمرور الوقت بدأت «دلال» ـ نفسها ـ تحرص على البقاء فى الإطار الذى حدده لها «صلاح»، وتستوثق ـ فى نمكية ـ من أدائها لنمرتها على النحو الذى يرضى عنه هذا المدرب! فقد كانت تشعر أنها أسيرة لدى «صلاح»، وأن مراكبها، فى العباسية، قد احترقت، ولم يعد لها مكان، لتعود وسط هذه الأسرة المرهقة، ذات الموازنة الشهيدة.

وكان «صلاح» على استعداد لفعل أى شىء فى سبيل التقدم نحو أهدافه ومراميه، ولو بأكثر الطرق كذبًا، وتضليلاً، وخداعًا، ومن آيات قدرته ـ فى هذا الإطار ـ أنه اشترى خاتمًا ذهبيًا، بفصّ كحُلى كبير، كذلك الذى يلبسه خريجو جامعة ألينوى ـ تشامبين أوربانا، ليعطى الإيحاء لكل من يقابله، بأنه تخرج فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، كما حرص على تقديم «دلال» لمعارفه، وضيوفه، بوصفها تنحدر من نسل عائلة ألبانية ترتبط بصلة قرابة بمحمد على باشا الكبير.

وتوسعت شبكة علاقات «صلاح»، وأصبح جميع وجهاء الجالية المصرية، وبالذات من رموز، ونجوم البيزنيس، يعرفونه حق المعرفة،

ويحرصون على التجمع فى منزله لقضاء سهرات ظريفة، أوصلته إلى بناء جسور شديدة القوة، مع مراكز النفوذ فى القاهرة، وواشنطن، وأصبح على «صلاح» أن يخترع مصدرًا لتمويل هذه السهرات، خصوصًا أنها تجاوزت بتكاليفها حدود راتبه المحدود، والمجهد، فبدأ الدخول فى بعض الأعمال الصغيرة، لصالح مجموعة من رجال البيزنيس المصريين، مستغلاً خلفية دراسته القانونية، وملتزمًا أقصى درجات السرية حتى لا يفصل من وظيفته، التى لا تسمح بحكاية العمل الإضافى.. وتراوحت تلك البيزنسات، بين فتح الاعتمادات البنكية، أو التعاقد، أو التفاوض حول التأمين، أو الشحن، وأثمرت تحقيق «صلاح» لأكثر من نقلة مادية، ومعنوية فى حياته وأنماط استهلاكه جعلته يفكر - جديًا - فى أن مستقبله لم يعد فى العمل الدبلوماسى، ولكنه - بالقطع - فى عالم التجارة، والتوكيلات والأعمال.

وقدم «صلاح» استقالته، لتمر بالإجراءات التقليدية، فبحثتها إدارة شؤون السلكين بوزارة الخارجية، ثم عرضتها على مجلس السلكين، الذى يضم فى عضويته الوزير، ومساعديه، وبعد أخذ ورد، وإصرار، وصد، وافقت الوزارة على استقالة «صلاح الدين عطا الله»، ليتخفف من قيود سياسية، وأخلاقية يلزمه بها العمل فى هذا الجهاز، وهى القيود التى أحس - كثيرًا - أنها تحد من تطلعه المتوحش للصعود، والظهور، وليشعر بأنه قد أصبح عصفورًا طليقًا، وأنه

يستطيع ـ من الآن فصاعدًا ـ أن يعلن إنتماءه إلى عالم رجال الأعمال.

احتل السيجار الضخم ـ الذى يعد الملمح الأساسى لصورة رجل الأعمال فى المخيلة المصرية ـ مكانه بين إصبعى «صلاح»، وأحدهما كان الذى يتزين بخاتم التخرج فى جامعة ألينوى، ليصبح الإصبعان وما بينهما علامة شديدة السطوع، على الزيف والتضليل.

ثم اكتملت الصورة باختراع «صلاح»، تاريخًا جديدًا لنفسه، يؤكد فيه لكل من يقابله من دائرة البيزنيس، أنه ترك مصر لأسباب سياسية، وكان يكيف هذه الأسباب السياسية، بحسب ميول وجنسية المستثمرين أو رجال الأعمال الذين يحدثهم، ومن ثم كانت تتراوح بين معارضته لاتفاقية كامب ديفيد، أو الحراسات، أو التأميم، أو غياب الديمقراطية، أو عدم عودة الملك فاروق للحكم!

وإضافة إلى الخاتم والسيجار، واختراع تاريخ شخصى، كان شكل «صلاح» ـ نفسه ـ يضفى على أكاذيبه، قدرًا لا بأس به من الوجاهة، والأرجحية، فقد كان أحمر الوجه، فارع الطول، عريض المنكبين، تؤهله هيئته لاحتلال منصب رئيس الوزراء، أو رئيس الهيئة العامة لتنظيم الأسرة، على أقل تقدير!

ومع صعود «صلاح»، كانت الرابطة التى تشد «دلال» إليه، قد أصبحت أكثر تعقيدًا، فقد توفى الأستاذ «عبد الدايم الخضرى».. والدها، على حين خرج اثنان من إخوتها من الدراسة الجامعية؛ ليعملا

كمندوبى مبيعات فى إحدى شركات الإليكترونيات، حتى يستطيعا النهوض بأعباء معيشة هذه الأسرة التى تحيا وفقًا لقانون «الحركرك»، ومن ثم ابتعدت مصر كثيراً عن «دلال»، وأصبح احتمال عودتها، غير مطروح على خريطة مستقبلها، لزمن طويل قادم.. ولم يعد لديها سوى «صلاح» وتلك الرابطة غير المنظورة المعقدة، التى تربطها به، لتؤدى ـ دائمًا ـ نمرتها التى يحددها لها، عارفةً أنَّ تاريخ صلاحية ارتباطها به، سوف يتقرر بالمدى الزمنى، للدور أو الأدوار التى رسمها لتؤديها!

طلب منها ـ فى البداية ـ أن ترقص له، ليرضى رغبة تاريخية مزمنة تحتل وجدانه منذ أن شاهدها خلسة وهو فى الخامسة عشرة، ترقص فى عيد ميلاد «چورچ» ابن طنت «إيزيس»، وهى الرقصة التى ألهبت خياله لسنوات بعدها، وانصاعت «دلال»، تؤدى نمرتها، وتنتظر قطعة اللحم، أو مكعب السكر، أو الجزرة، فى نهايتها.

ثم دعاها لأن ترقص أمام بعض ضيوفه «لتطرية» القعدة ـ على حد تعبيره ـ وبعد ذلك، أصبحت هذه الرقصة، جزءًا أساسيًا من أركان أية قعدة يشهدها منزل «صلاح»، بل وأصبح ضيوفه يطلبونها بعد أن استحالت حقًا من حقوقهم المكتسبة، ثم ترافقت نمرة «دلال» مع أداء راقص لفتاة أخرى، مغربية، اسمها «عائشة» بدأت تداوم على الحضور مع أحد رجال الأعمال، بعد أن تعرف بها فى باريس، ثم أرادت أن تشارك وتجامل، وتقوم بالواجب، الذى لن يكون ـ فى

هذه الحالة ـ إلا رقصًا، فأصبحت ـ هى الأخرى ـ فقرة ثابتة لا تتصف القعدة، بوصف «طرية» من دون حضورها ومشاركتها.

وقد أحست «دلال»، باقتراب إنسانى حقيقى من «عائشة»، فقد كان هناك ـ غير الرقص ـ ما يربطهما، ألا وهو التبعية، التى تجعل من أيهما مجرد نمرة فى البرنامج، تحرص كل منهما على أدائها، بأفضل مستوى، وإلا فلن يكون هناك قالب سكر، أو قطعة لحم، أو ثمرة جزر!

اقتربتا سويًا، عبر التشارك فى الرقص، ومن «خلال» الاستغراق فى قراءة قصص «عبده دسوقى» المفجعة، التى يطالعنها فى نسخة من جريدة «خوفو» يأتى بها أحد رجال القعده معه، متأخرة يومًا عن موعد صدورها، لأنها تصله ضمن بريده السريع من مصر.. وكم ذرفتا الدموع، وتشحتفتا طويلاً وهما تطالعان سطور إحدى فواجع «عبده»، فتدعمت الصلات عبر هذا الاقتراب، وأصبحت «عائشة» هى الونَس الحقيقى لدلال، تتقاسمان تجربة مشتركة، لا تعرف أيهما إلى أين تفضى، أو متى تنتهى!

إلا أن النهاية بدت واضحة، عندما تعرف «صلاح»، برجل الأعمال المصرى، «ممدوح فوزى»، صاحب النفوذ السياسى الكبير فى المحروسة، والذى اقترض مئات الملايين من أموال البنوك، ليدورها فى مشروعاته، ولتصبح الدولة، بقضها وقضيضها، بهيلها وهيلمانها، رهينة عنده، تحرص على ألا يفلس، وتراقب أحواله

المالية، برجاء وأمل، مستنهضة كوادرها ونجومها، فى الحكومة والبنوك، إلى الصلاة من أجلها، بعد أن وزعت عليهم آلافًا من سجاجيد الصلاة، ومسابح الفضة والكهرمان، علها تفلت، علها تنجو.. فضلاً عن نشر فرقة كاملة من المنشدين الدينيين على أبواب البنوك، وسوق الأوراق المالية، للابتهال إلى المولى، أن ينصر «ممدوح فوزى»، وينقذ الحكومة!

وقد أراد «ممدوح فوزى» (فى أحد تحركاته التى استهدفت طمأنة الحكومة، إلى استقرار أوضاعه، واستتباب سيطرته على مجريات أموره الاقتصادية) فتح مكتب تمثيل لنشاطاته، بالولايات المتحدة الأمريكية، يتولى إدارته «صلاح عطا الله»، وهو الأمر الذى تم الإعلام عنه، وإذاعته، ونشره فى المحروسة، على نطاق واسع، من دون الإشارة إلى دلالته، أو مغزاه، ومن ثم ـ وتمشيًا مع التقليد المصرى الراسخ ـ فقد نظر الناس إلى هذا التطور باحترام، وتقدير كبيرين، كونه غير واضح، وغير مفهوم لديهم!

ومع حالة الانتعاش الكبرى، التى فسرها البعض بأنها نتيجة لدعاء مديرى البنوك، وإنشاد المنشدين، أقبلت السوق ـ بقوة ـ على «ممدوح فوزى»، وأصبح «صلاح الدين عطا الله» ـ من حيث لا يدرى ولايحتسب ـ طرفًا فى أكبر كتلة اقتصادية تهيمن على المحروسة!

وفى عمله تعوَّد «صلاح»، أن يضبط موجة إهتمامه، وإنتباهه، على نظيرتها عند «ممدوح فوزى»، ملبيًا ـ ربما من دون أن يُطلب منه

ـ كل احتياجات «ممدوح»، و حتى ما يقع منها خارج حدود الشرعية! بل ويسهم فى فك عقده النفسية، تلك التى كان يُعبِّر عنها، حين ينادى «صلاحًا»: «يا سعادة السفير» قبيل أن يطلب منه طلبًا حقيرًا، مثل شراء شامبو لكلبته فى مصر، أو تركيب رباط جديد لحذائه، أو عمل موعد للمانيكيرست كيما تزوره فى الفندق، لتقلّم أظافره، وكان «ممدوح» يحرص ـ فى مزيد من الاستمتاع والاستمزاج ـ على إغراق «صلاح»، بتعليمات إضافية تفصيلية، فيما يخص كل من هذه التكليفات، حتى يعطيه إحساسًا، بأنه يستكثر عليه أن يقوم بأحدها، فضلاً عن عدم ثقته فى قدرته على إنجازه بدقة، ونجاح!

على أية حال، فمع اتساع أعمال «صلاح» فى مكتب التمثيل الجديد، بدا وكأن تغييرًا هيكليًا، أصبح حتمى الحدوث، فى شبكة علاقاته، أو فى نوع سهراته، وقعداته، فقد بدأ يشعر أن علاقته بـ«ممدوح فوزى»، لا تحتمل علاقات أخرى، إلى جوارها، وأنه ينبغى أن يتحول إلى قمر صناعى، يدور حول كوكب «ممدوح»، ولا يتأثر سوى بمجال جاذبيته وحده!

كما كانت البنات الروسيات، والإسبانيات، والإيطاليات اللاتى وظفهن «صلاح» فى مكتب التمثيل، كافيات، وزيادة، لأن ينثرهن حول «ممدوح فوزى» فى أية سهرة، بيتية، أو خارجية، ليشعن مناخًا صاخبًا، وملتهبًا وذا طابع كونى، أقرب إلى جو المنظمات الدولية، ومن ثم، فإن حكاية «دلال» و«عائشة» أصبحت ـ الآن ـ متجاوزة

لتاريخ الصلاحية وصارت الصيغة كلها تحتاج إلى رفع درجتها، أو «الأب جريدنج»!

وضمن رفع الدرجة، وشؤون «الأب جريدنج» اختار «صلاح» فتاة أمريكية، اسمها: «هيلين إيلينبرن»، تعمل صَرَّافة فى «ترست بانك»، وهى صاروخ جمال، ونعومة، وإغواء، وجنس، لتصبح رفيقته، أو «الجيرل فريند» التى يتعايق بها على الأصدقاء، والرفاق، فى واشنطن، وفى المحروسة.. وكانت البداية حين انبهرت بسجل حسابه فى البنك، ثم برصيده - الذى لا ينضب - من حركات المشاغلة، والمعاكسة، فاندفعت نحوه فى علاقة، من تلك التى تصنف، فى بند العلاقات فائقة السرعة!

وسرعان ما اقتسم «ممدوح»، هذه الفتاة الصاروخية، مع «صلاح» بعدما نجح فى استمالتها، عبر شلال هدايا وعناصر إبهار لم يقو بناؤها النفسى، والثقافى على الاستمرار فى الصمود أمامه، وهى التى نشأت فى مجتمع، عندما يريد أن يقدم أى من أفراده هدية للآخر، فعادة ما يقدم كتابًا عن الطيور، أو شريط تسجيل لأغنية ذات دلالة، أو عملة معدنية تذكارية!

وفى طريق تطور هذه العلاقة ثلاثية الأبعاد، تعمد ممدوح أن يطلب من «صلاح» توصيل «هيلين» إلى غرفته، حريصًا - كعادته عندما يكون الطلب حقيرًا بشكل كاف - أن يسبقه، أو يلحقه بنداء - تغلفه نبرة احترام كذوب : «يا سعادة السفير»!!!

. . . وهكذا انتهت نمرة «دلال»، أو دورها الذى ظلت تؤديه، لفترة طويلة، وبنجاح ساحق، على مسرح زواجها بصلاح الدين عطا الله الموظف السابق، بوزارة الخارجية والممثل الشخصى الحالى، للقطب الاقتصادى الكبير «ممدوح فوزى».. ومع انتهاء النمرة أو الدور، انفض مولد كبير، كان «صلاح» قد نصبه للمجموعة القديمة، على حين، بدأ نجوم هذه المجموعة فى الانسحاب، إلى خط الدفاع الثانى، فى قعدات وسهرات بديلة، أو إلى نشاطات ليلية فردية، لاعنين عدم استمرار المصريين فى أى عمل جماعى!

أما «عائشة» فقد تخلى رفيقها عنها، بعدما اضطرته ظروف عمله، إلى العودة إلى مصر بشكل مفاجئ ونهائى فأقامت بغرفة، فى بدروم بيت بجورج تاون، عند تقاطع شارع P مع ويسكنسون، وسرعان ما لحقت بها «دلال»، حيث عرفت منها أنها ستعمل فى كباريه عربى، يملكه قريب مغربى، فى «أولد أليكسندريا»، واسمه «ذى كوكيت كاميل»، وأنها يمكن تتوسط لدى قريبها أن يوافق على عملهما معًا هناك.. ووافقت «دلال» لتغير ـ مرة أخرى ـ اتجاهها، وتحول مجرى مسيرتها، إلى طريق جديد ترجو، وتتعشم أن يكون أقل وعورة وانغلاقًا!

. . . .

أولد ألكسندريا..

مكان عمل «دلال» الجديد، وساحة التنفيس عن مشاعرها، والاستغراق فى تأملاتها، والتسرية عن نفسها، كلما وجدت لذلك

سبيلاً، أو وقتًا. . حتىّ يتعانق فيه إحساس بوهيمى، متوثب، حار، مع روح التاريخ المهيمن، والطاغى!!

وقائع الماضى، وشخوصه، وتفسيراته، ماثلة. . حاضرة، فى تلك المدينة، السابحة فى أضواء باراتها، ومطاعمها، محتلة موقعها الفريد، على الضفة الغربية، لنهر الباتوماك، فى ولاية فيرچينيا، جنوب العاصمة واشنطن بستة أميال.

فلكل حجر ـ فى هذه المدينة ـ حكاية، ولكل حكاية امتداد ضارب فى عمق التاريخ، حتى ليخال المرء، وهو يسير فى شوارعها ـ التى تسمت بألقاب إنجليزية سامية، مثل. . ديوك، وكوين، وبرنسيس، وكنج ـ أن أطيافًا لشخوص صنعوا تاريخها القديم، وملأوا فراغه الزمنى، تسرى جانبه، وتتقافز أمامه، مستدعية آلاف الصور، والمشاهد القديمة. . وهى تلاغيه بمقدار انغماسه فى الإحساس، بالتاريخ، وتلاعبه بمقدار حضور هذا العنصر فى تشكيل رؤيته للحاضر.

وليس عجيبًا ـ فى هذا السياق ـ جولات الأشباح التى تنظمها بلدية المدينة، يقودها أدلة، يرتدون الملابس، التاريخية، لتسحب وراءها طوابير طويلة من مرتادى الإسكندرية، إلى بعض مبانيها وساحاتها الأثرية، حيث يدور حديث له عبق التاريخ، عن السير ويليام بيركلى، حاكم فيرچينيا، الذى منح القبطان الإنجليزى روبرت هاوسينج، فى القرن السابع عشر قطعة أرض، تقديرًا من ملك

بريطانيا تشارلز الثانى، لجلب القبطان مائة وعشرين شخصًا للعيش فى فيرچينيا، ثم باعها هاوسينج إلى جون ألكسندر، الذى تنتسب المدينة إليه، وليس إلى عروس البحر الأبيض، كما يتصور بعض المصريين فى الولايات المتحدة الأمريكية، حين يُهيئ لهم الاندفاع وراء المبالغة فى الزهو القومى، رد أساس وتاريخ كل شيء إلى بلدهم، التى بناها - فى الأصل - حلوانى!! فالتجار الأسكتلنديون، الذين كانوا يسكنون أحد أحياء المدينة، هم الذين أطلقوا اسم الإسكندرية عليها، فى ١٧٤٩ تخليدًا لمالك الأرض، وهى حقيقة تاريخية، لا يمكن - بكل أسف - القفز عليها، أو الدوران حولها، إرضاءً لمشاعر الزهو القومى، أو مجاملة لها!

وإلى جوار التاريخ الإنجليزى، الذى يفوح من شكل العمارة، وتخطيط الشوارع، كان الإحساس الفنى، الغامر، الطازج، الطليق، يغلف قاعات الفن التشكيلى، المتناثرة، على امتداد أشهر شوارع المدينة. . كنج ستريت، فيما الفرق الشعبية الأيرلندية، تصدح - فى بعض المطاعم - بفوران مثير، منتجة بآلات البار الإيقاعية، وأنغام الفيولينات الشعبية عواصفَ من المشاعر، والأحاسيس، تتسلل إلى خارج هذه المطاعم، لتهيمن على جو الشارع، وتفرض سيطرتها المزاجية على من فيه. . وعازف موسيقى القِرَب الأسكتلندى - بالكلت التقليدية - يقف على مقربة من النافورة الكبيرة، عند تقاطع كنج ستريت، ورويال ستريت، ليحاور - من جديد - أرواح أجداده، الذين سكنوا - منذ أكثر من مائتى عام - شارع الكاميرون القريب،

فيما يمتد خلفه بسلالم طالعة، وأخرى نازلة، مسطح كبير، من البلاط الحرارى الأحمر، والحجر البازلتى الأسود، تحوطه أعمدة إنارة، كلاسيكية التصميم، تتدلى منها، سلال زهور، فاجرة الألوان.. وعلى مستويات كل درج، تتناثر أزواج من المدلهين بالغرام، والعاشقين صبابة، ليضعوا ـ جميعًا ـ لمسة إنسانية شديدة الدفء على لوحة المدينة، ومشهد المكان.. وقد كانت هذه الساحة هى المكان المفضَّل لتمشيات «دلال» و«عائشة»، قبل أو بعد الذهاب إلى عملهما، فى «ملهى الجمل اللعوب»، ولم يك الدافع هو الحسد، لكل هؤلاء الغارقين فى الحب، بمقدار ما كان الاستئناس بهم، وبالفن، وبذلك الإحساس الموحى الجارف، الذى يسيطر على المكان!

وفى بوهيمية فنية غامرة ـ أيضًا ـ يقف أحد عازفى الجيتار على مدخل بار، واضعًا قبعته على الأرض، لتستقبل قروش نقوط المارة، الذين تحلقوا حوله، بعد أن استدعى إلى ذاكرة كل منهم، أنغام وذكريات، أغانى السبعينيات المشهورة لتوم جونز، وآبا!!

بينما عازف مصرى على العود، يقف على الرصيف المقابل، ممثلاً الرد الحضارى، الذى يؤكد الخصوصية الثقافية النابعة من تراثنا، ليغنى: «إنت عمرى»، مستلفتًا أنظار المارة إلى صوره، المثبتة على لوحة تجاوره، حيث يظهر ـ فيها ـ مشاركًا، فى تشجيع الفريق القومى المصرى، فى معظم المباريات التى لم يكسبها!!، مثرثرًا مع المارة من العرب، حين توقفه عن الغناء، حاكيًا أنه عقد العزم على

تأليف وتلحين أغنية، فى تحية رئيس الوزراء المصرى، وأنه أجرى اتصالات مكثفة ـ متسلحًا بالقوة الرهيبة التى يمنحها كل من الإلحاح والسماجة، أو كليهما ـ مع بعض أعضاء الحكومة الزائرين إلى واشنطن، ليدله أحدهم على وسيلة يمكن أن يرسل بها الشريط إلى رئيس الوزراء، وكيف أنه شرب ـ من أجل تعمير الدماغ وتعلية المزاج أثناء تأليفها ـ نصف زجاجة من نبيذ «بوونز فارم»، وهو أرخص الأنواع ثمنًا، وأكبرها حجمًا. . وفيما احتلت الزجاجة مكانها إلى جواره، وهو يصدح على أنغام عوده، أمام جهاز التسجيل فى منزله، دق جرس الباب، فهمس لجهاز التسجيل، بنبرة ملؤها الرجاء: «عن إذنك ـ يافندم ـ أقوم أفتح. . وآجى أكمل لك الغنوة»!

وفى نهاية الشارع، وقرب الميناء، تتجمع عصابات الموتوسيكلات Riding Gangs فى مربع بعينه، قرب أحد البارات، راصّين دراجاتهم البخارية «الهارلى ديفدسون» فى صفوف طويلة، ممسكين أكواب البيرة، مستعرضين ملابسهم الجلدية، ذات الأزرار، والبراشيم المعدنية، متوحدين ـ فى سبيكة تمرد واحدة ـ مع محاربى فيتنام القدامى، الذين يتظاهرون، منذ خمسة عشر عامًا، بدراجاتهم البخارية، فى مواكب كبرى، صانعين شكل يوم الذكرى (الميموريال داى)، من كل سنة، لتحية قتلى فيتنام، والإصرار على البحث عن المفقودين منهم!

أشجار «الرد أوك» و «اليِلوُ أوك» و «السكارلت أوك» على

جانبى الطريق، تمتد فى خطين مستقيمين، لتربط آخر الشارع عند الميناء، بأوله عند مركز چورچ واشنطن الماسونى، فى تبادلية ـ شديدة الإحكام ـ مع فوانيس إضاءة جميلة تستوحى الطراز القديم.. التاريخى، وتستنسخه!

وعلى الصفين، تتواتر محلات السجاد الإيرانى، والأفغانى، والأنتيكة، والمطاعم الكوزموبوليتان، المكرسة لثقافة كونية، رموزها المطابخ: الإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، واليونانية، والفيتنامية، والتايلاندية، حاملة أسماء: «إيل بورتو»، و«وير هاوس»، و«سكوتلاند يارد»، و«فيش ماركت»، و«تافرن كريتيكو»، و«تاباس»، فيما محلات الأظافر الصناعية، والشعر الصناعى، تتجاور متشاركة مهمة إرساء قواعد وأصول صناعة التزييف، وعلم التستر!!

وكانت دار السينما «أولد تاون سينما»، مغلقة، موصدة الأبواب، مطروحة للبيع، بينما كانت المكتبة «سوبر كراون» موحشة، جرداء، تكاد تكون خالية، فحين تكون الثقافة حاضرة فى الشارع، إلى هذا الحد، بعناق التاريخ والفن، يصبح من الطبيعى، أن تتراجع «الوسائل» إلى خلفية المشهد، أو إلى كواليسه!

أما الميناء نفسه، فمدخله من ممر، تصعد إليه بعدة سلمات، وتتجاور على حديه محلات للأثاث الإيرانى، والمصاغ الهندى، ثم يفضى الممر إلى رصيف الميناء الذى يأخذ ـ بأرضية من عروق الخشب

ـ شكل حرف W، وعلى جانبيه وفى منتصفه تتراص اليخوت، بينما حطت إلى جواره مراكب جولات الباتوماك، التى يركبها السائحون «بالنفر». . وصف من اللمبات الزرقاء يحوط حدود كل رصيف عند نقطة التقائه بالماء، وعلى الجانب الأيسر يربض مطعم: «شارت هاوس» بمطالعه، ومنازله الحجرية، وواجهاته الزجاجية العريضة المطلة على النهر، وإلى جواره كشك للموسيقا، يؤدى فيه أحد البهلوانات، وحواة الشوارع، العرض التقليدى الذى يتقاذف فيه مجموعة من الكرات الملونة، محافظًا على توازنه، سواء كان يقف على قدم واحدة، أو يركب دراجة، أو ينام على ظهره، والجميع يتقاطرون نحوه، مدفوعين بحب الاستطلاع، والرغبة النهمة العارمة فى التسرية عن ذواتهم! وكثيرًا ما كانت «دلال» تجد نفسها أثناء تسكعها فى المكان واستغراقها فى التفكير، أو الحديث إلى نفسها، بين هذا الجمهور، ليس استطلاعًا أو تسرية، وإنما لأن إحساسًا عجيبًا قد تملكها، بأن هذا الرجل يؤدى مشهدًا من حياتها، أو فصلاً من كفاحها المرير، لتبقى على قيد التوازن. . على قيد الاستقرار!!

وفيما يتواصل عبور الطائرات الهابطة إلى مطار ريجان فى كريستال سيتى القريبة، كانت طيور البحر ـ بعد أن أخلت سماء الميناء لهذه الحركة الجوية المكثفة ـ تمشى على الأرض مجاورة لعدة بطات ترتدى حللاً قشيبة من الريش الرمادى، والبيج، والأسود، وتكتسى رقابها، بدرجات شديدة الأناقة من اللونين الأخضر، والأزرق، مرتدية

أحذية من الجلد البرتقالى الفاقع فى أقدامها!! وكأنها فى الطريق إلى حفل فخيم، يقام فى مناسبة، ليست أقل من تنصيب الرئيس الأمريكى شخصياً!!

ومن بعيد.. تبدو قبة مبنى الكابيتول شمال ألكسندريا بستة أميال، وإلى جوارها المسلة الأمريكية الشهيرة.

وعند بوابة كنج ستريت من الجانب الآخر العكسى، لموقع الميناء، وعلى مقربة من المركز الماسونى، تمتد واجهة عريضة تعلوها إضاءات بأنابيب النيون الفسفورية الخضراء، والبمبى، ولافتة جانبية مضيئة، يظهر عليها رسم لرأس جمل، حدد شفتيه بالروج، ورسم حسنة على جانب صدغه، فيما أغمض عينيه إمعاناً فى الدلع، وتحته - بالعربية والإنجليزية - عبارتى: «ملهى الجمل اللعوب» و«ذى كوكيت كاميل نايت كلوب»!!، وفى نافذة الواجهة صورتان كبيرتان لدلال، و«عائشة»، وفوقهما كلمة: (الليلة)، بينما تتقاطر إلى الداخل، جماعات من ذوى السمات والملامح العربية التقليدية.. الشارب العريض، والأحذية الكروكوديل، ذات الحليات المعدنية، والعطر الزاعق الهفهاف، ونظرات الاعتداد والثقة، والصوت الجهورى العالى، والقمصان الحريرية «الملهلطة»، والمشجرة!!

وإلى جوارهم يتوافد بعض الأمريكيين، والسائحين الذين تلبسهم الفضول، واحتلت رءوسهم خيالات صور نمطية، عن كنوز الشرق، وثقافته الحسية، وعن العربى ذى السيف العريض، والأميرة ذات

الملابس الشفافة، وصندوق اللؤلؤ الذى يحرسه سحر مرصود، وسبع حيات شقراوات. . . (ولم يعرف أحد ـ حتى الآن ـ ما الحيات الشقراوات، ولكن إذا سلمنا بوجود الثعبان الأسمر فما المانع من وجود حية شقراء. . أما إذا غلبنا الشك ـ أيضًا ـ فى وجود الثعبان الأسمر، فلنترك الموضوع كله جانبًا، وليكن صندوق اللؤلؤ، محروسًا بسحر مرصود، وتمساح أحمر!!!).

والمشهد فى كنج ستريت كله، يظهر متوافقًا، شديد التناغم، فيما عدا وجود هذا الملهى، الذى يبدو، وكأنه وضع عمدًا ـ فى طرف قصىّ من الشارع، لتأكيد فكرة أنه لا ينتمى إلى الجو ذاته، ولا يرتبط بالفكرة نفسها!

بساط أحمر قانٍ يفترش أرضية الملهى من الداخل، فيما علت سقفه، زخرفات متماثلة سقيمة، كتلك التى تعلو خيام سرادقات العزاء، وعلى الجانبين بنوارات، مفتوحة على الصالة، من ناحية أحد أضلاعها، لتصبح أشباه غرف، تؤكد الخصوصية، وتحمى التجاوزات، وفى المنتصف خشبة المسرح، التى يصطف عليها عشرون كرسيًا للفرقة، وقد وضع كل عازف آلته على كرسيه لتنتظره فى شوق ملتاع. . الإضاءة بمبية، من النوع، الذى يوصف، فى التراث الحسى العربى، بأنه: «آخر حركات»!

النادلون يحملون الصوانى النحاسية، وعليها أطباق «الكسكس» و«الباستيللا» وزجاجات النبيذ، فيما كبيرهم ذو السلوك الناعم

والحاجبين المزججين، يشرف ـ بكل دقة ـ على وقائع الليلة، ويطمئن إلى أنها تسير فى طريقها المرسوم!

وقد شهدت ليالى هذا الملهى ـ على أيدى «دلال» و«عائشة» ـ أمجادًا كبيرة، حتى أن نقلة كيفية قد حدثت، فى نوعية الزبائن، بدخول فصيل من موظفى الهيئات الدولية فى واشنطون دى سى، إلى عالم «ذى كوكيت كاميل»، وهو الفصيل، الذى من فرط الانبهار، أصبح الأكثر مواظبة، وانتظامًا فى الحضور!

وضمن هؤلاء الزبائن ـ وفى سرية تتوخى الابتعاد عن مراقبة سلطات البنك ـ كان «چورچ مشعلانى»، نائب مدير IFC، وضيوفه أعضاء وفود الشرق الأوسط وأفريقيا القادمون إلى «واشنطون دى سى»، لمفاوضات مع هيئة التمويل الدولية، بغية الحصول على قروض تمويل لمشروعاتها.

فى البداية جاء «چورچ»، إلى «ذى كوكيت كاميل»، للتجربة والاختبار، بعدما سمع أنه المكان الوحيد، فى واشنطون وفى فيرچينيا، الذى يقدم رقصًا شرقيًا أصليًا، وليس من ذلك النوع المدبلج، وارد نيوچيرسى، أو نيويورك والذى يبدو كالخضار السوتيه، لا طعم له ولا نكهة، كونه رقص الجيل الثانى من المهاجرين، وهو، ليس ـ طبقًا للقاموس السياسى، والفكرى المصرى ـ نابعًا من واقعنا!!.. فلما شاهد الأداء الرفيع الذى قادته ممثلتا شمال أفريقيا، من ركنيه الشرقى، والغربى، ولاحظ إعجاب

ضيوفه، الواصل إلى درجة عالية من «الهطل»، أصبح «ذى كوكيت كاميل» محله المختار والدائم.. اليومى!

وكان «چورچ» ـ عادة ـ ما يطرح، فى هذه القعدات، أو بعدها مباشرة، مع ضيوفه من المستثمرين، موضوع نصيبه المستحق، عن تسهيل القرض.. الأمر الذى كان يحظى ـ بالضرورة ـ عند هؤلاء الضيوف، بقبول كبير، وسط مولد الإيقاع، أو ارتعاشات أضواء البروچيكتورات، أو الأداء فائق المرونة، والمشوب بالليونة لدلال وعائشة!! أو تحت تأثير ذلك مجتمعًا، والذى يستمر مفعوله ما بين ساعتين ونصف الساعة إلى ثلاث ساعات إلا ربعًا، بعد مغادرة الملهى!

. . . .

وفى اقتراب «سيد شندى» من «چورچ»، وصفقاته، بدا حريصًا على المراقبة اللصيقة، والبحث عن الفجوات، التى سيمرق منها إلى مزيد من حال التشارك مع «چورچ»، والاندماج مع مشروعه ذى الآفاق المذهلة، للتربُّح على أوسع نطاق دولى، من أجل غدٍ.. «أفضل»! وكان «سيد» يعتبر، أن ذروة سنام الثقة، التى يمكن أن يتحصَّلها، من «چورچ»، تتمثَّل فى سماحه له بالانضمام إلى سهرات «ملهى الجمل اللعوب»، وحضور أحد فصول مفاوضات «الوضع النهائى» التى يتحدد نصيب «چورچ» عبرها!

وبعد مرور ما يقرب من السنة، على عمل «سيد شندى» فى IFC،

بالبنك الدولى، وتفانيه الشديد فى التخديم على «چورچ»، والالتصاق به، فاجأه الأخير بدعوته إلى إحدى سهرات «ذى كوكيت كاميل» التى تم ترتيبها، لوفد من مستثمرى زائير، فأدرك «سيد»، أن طاقة السعد، قد انفتحت له، وأنه قد وضع قدمه على الخطوة قبل الأخيرة فى طريق المجد، إذ أن نهاية هذا الطريق وغايته ـ فى نظره ـ كانت التشارك مع «چورچ» فى أنصبته، أو العمل لحساب نفسه، كمرتشٍ مستقل ذى سيادة!!

وفى الموعد المضروب، ارتدى «سيد» أفخم ما لديه من ملابس.. حلة «شيروتى» رمادية غامقة، وتحتها قميص «بوس» مقلم بالرمادى والأبيض، وذى ياقة بيضاء، ورابطة عنق «أرمانى» ذهبية، ومنديل جيب بنفس لونها، وحذاؤه «الكارتيه» الأسود يبرق كالمرآة من فرط تلميعه، باختصار، كان «سيد» يبدو كعريس ليلة زفافه، إلى المال الكثير، وكان على أهبة الاستعداد لمعانقته، وتقبيله، ومضاجعته اذا تيسر!!

وفى الملهى.. تظاهر «سيد» أمام الضيوف، بالولاء الشديد لچورچ، والخوف منه، كيما يطمئنه، ولكى يكتسب ثقتهم التى ستمكنه فيما بعد، من خيانة «چورچ» نفسه، والاتفاق معهم مباشرة، تحت دعوى أن إنجازه أكبر وإيقاعه فى العمل أسرع، وبخاصة أنه حرص أمامهم ـ فى المسائل الفنية ـ على أن يبدو العقل المحرك لچورچ، مع استمرار إيحائه بالولاء والخوف، وغيرها من الصفات المطمئنة.. وقد بلغ من

فرط اتشاح «سيد» بالأدب والخجل، أن إحدى زجاجات المياه، كانت تفصل بينه وبين طبق الطعام، فخشى أن ينقلها، وأخذ يدور بالشوكة من حولها، حتى يتفادى المواجهة، إلى أن لاحظ «چورچ»، فنقل الزجاجة من أمامه، وهنا تظاهر «سيد»، بأنه فهم من هذه الحركة، أن الزجاجة لا تتمتع بحماية «چورچ»، ومن ثم فهى زجاجة لا ظهر لها، فاستباحها، ناقلاً إياها، بسبب، ومن دون سبب، من أقصى المائدة إلى أقصاها!!

وبلغت الليلة ذروتها، حين أظلم المكان، إلا من بقعة ضوء مسلطة، على خشبة المسرح، فيما اتخذ العازفون، أماكنهم ممسكين بآلاتهم الموسيقية، والتى أصبحت جزءًا من تكوينهم العضوى، سواء بانحناءة ظهر الطبال، على طبلته، وتورم أصابعه القصيرة، الملفوفة بالبلاستر، من كثرة النقر، والرقع على جلد هذه الآلة الموسيقية المشدود، أو بلوية عنق عازف الكمان، التى تمكنه من سند صدغه على جسمها، أو بالشكل، الذى يأخذه الخد عند النایاتی، من فرط اعتياده، على الانتفاخ بالهواء، وإفراغه فى فتحة الآلة، دفعة واحدة، أو بتقطع محسوب، ثم بحالة التطلع الدائمة بالرأس إلى أعلى، مع هزها ـ بشكل متواتر ـ فى دروشة نشوانة، عند عازف الصاجات!

وما أن قدَّم أحد أفراد الفرقة «دلال»، و«عائشة»، بطريقة بالغة الحماس، حتى دخلت الراقصتان، وسط فرقعة طبول ودفوف، وتصفيق من جمهور الصالة.

كانت «دلال» تلبس بدلة رقص ذهبية، معقودة عند منتصف الصدر، على جانب الخصر، بطريقة موحية، ومزق من الشيفون البيج تتدلى من أمام الساقين وخلفهما، متعمدة اصطناع التلقائية، فيما أكدت ذلك بترك شعرها هائشًا، ووحشيًا، وارتدت ـ ما أصبح جزءًا من شخصيتها ـ من المصاغ، والإكسسوار الضخم. . وعلى حين لبست «عائشة» حذاء رقص خفيفًا فى قدميها، كانت «دلال» حافية، تستطعم الأرض، وتتواصل معها، بأعصاب القدمين، مؤمنة أن نقطة بداية تيار الإحساس، الذى يسرى فى بدن أية راقصة، تبدأ من القدم، وربما من أجل ذلك ارتدت، سلسلة ذهبية بحلية على شكل قلب عند مفصل رسغ القدم، حتى تبدو كأنها وضعت خطأً ـ هناك ـ للتأكيد، ولفت النظر!!

فقد كانت «دلال» تستشعر، بأن كل أحاسيسها المكتومة، وطاقتها المكبوتة، تجد طريقها إلى الخروج، لحظة أن تخلع حذاءها، وتدوس بأطراف أصابع قدميها، أو ترتكز ببطن القدم ـ كاملة ـ على الأرض، صانعة من ارتفاع الكعب، أو انثناء المشط، تموجات متوالية، تهز بدنها كله.

وفيما كانت تدور ببصرها ـ فى الصالة ـ للتعرف إلى نوعية الجمهور، وما إذا كان يضم أحدًا من الزبائن المعروفين، بما يوجب تحيته، أبصرت «چورچ»، ومجموعة الزائرين، ثم عادت ببصرها مرة أخرى ـ فى اتجاه عكسى ـ مرورًا بمجموعة الزائرين، ثم «چورچ». .

لتثبت على الشخص الجالس إلى جوار «چورج»، بحياء، لم يمنعه من أن يعلق ناظريه، بها، من خلال عينين، تلتمعان بنظرة، هى خليط من الرجاء والأمر، وبشبح ابتسامة واعدة، يرتسم على شفتيه اللامعتين.

لقد كان. . «سيد»، ذلك القادم الجديد الذى استحوذ على تفكير «دلال»، طوال أدائها، لرقصتها، حين كانت تميل من حيث استوت، إلى الخلف، وشعرها يتأرجح، جيئة وذهابًا، فتراه مقلوبًا، ثم تؤدى حركة اللفة، على الواسع، لتعقبها بقصعة، وثلاث هزات قوية ترافق الإيقاع، وتحترم مساره، فيشعر وكأن دقات قلبه هى صانعة هذا الإيقاع، ثم تخترق «دلال»، هذا النظام الإبداعى المحكم، لتعمد إلى الإبداع الحر، ولكن فى إطار عدم الخروج على النص التوقيعى، بالتقسيم، الذى ترافقه الاستدارات المتواصلة للرسغ حول نفسه، أو بدخول وخروج عضلة البطن بليونة، متزامنة مع نقرات إيقاع مدوٍ كطلقات رصاص. . . و. .

. . و. . قبل أن تختتم «دلال»، تميل على عازف الكمان، قائد الفرقة، وتهمس فى أذنه، فيهز رأسه بعلامة الطاعة والموافقة، ثم تبدأ الفرقة فى عزف موسيقا أغنية «سنتين. . وانا احايل فيك»، وتتبادل «دلال» مع «عائشة» الترامق بإيماءات مفعمة بالشقاوة، ناحية «سيد»، فتفهم الأخيرة، مفسحة لها مساحة على المسرح، هى الأقرب إلى جلسة «چورچ». .

وعبر النظرات، والإشارات، والتمتمة من دون صوت، بكلمات الأغنية. . «يا سبب تعذيبى. . والاسم حبيبى»، بدأت قصة العلاقة بين «دلال» و«سيد»، وهى العلاقة التى التقطها «چورچ» وهى طائرة ـ منذ اللحظة الأولى ـ إلا أنه أدرك أنها ستخدم أغراضه، من خلال زيادة ارتباط «دلال» بضيوفه، وهم من اعتادت أن تجالسهم، بعد انتهاء رقصتها، فشجع على تلك العلاقة، ودفع إلى استمرارها، وتطورها!!

. . . .

ومضت «دلال»، و«سيد» فى طريق طويل، وهو طريق كانت تراه باستمرار أقل وعورة، وأقل انغلاقًا. . كونها تحس فيه أنها ليست نمرة فى سيرك، تنتظر قطعة اللحم، أو مكعب السكر، أو ثمرة الجزر، ولكنها شريك كامل، لرجل صاحب فكر، يبحث فى العلاقة بين أنظمة العالم الثالث الثورية، والرقص الشرقى، والذى هى صاحبة اختصاص أصيل فيه، ثم أنه يحبها بالفعل، فضلاً عن أنه متزوج من كائن دميم بشع، بما يجعل محبة «سيد» فى مقام الصدقة، وأخيرًا فهو صديق للأستاذ الكبير «عبده دسوقى»، الذى لطالما أبكاها، وشحتفها، وربطها بخيوط إنسانيته الغامرة، والدافئة، على صفحات جريدة «خوفو»!!

وعلى امتداد مسيرة «سيد»، سواء بعمله فى IFC أو بعودته إلى مصر، كانت «دلال» على صلة مباشرة، أو تليفونية، بكل دقائق

حياته، إذ لم يك يشعر بالارتياح لسواها، وهى الكائن الطيب، الذى وجد نفسه طوال حياته مجبراً، على تغيير المسار، أو تحويل المجرى، تحت وطأة ما اصطُلح على تسميته: (الظروف).. تلك العوامل المجرمة.. الغامضة.. المتوحشة، مخرجتها من الجامعة، ومزوجتها لصلاح، ودافعتها، إلى منحدر طويل، انتهى بها إلى صالة «الجمل اللعوب»!

مع «سيد»، شعرت «دلال» بأن كل أسئلة العلاقة اختيارية، وأنها يمكن أن تقف معه على عتبة، تغيير مجرى حياتها، أو تعديل مسارها، ولكن ـ هذه المرة ـ إلى طريق ربما يكون سالكًا!!

وبهذا الأمل، الذى تعلقت بأهدابه، والرجاء الذى ذابت فى التوحد معه، سعت إلى مشاركة «سيد»، فى كل تفاصيل، صعوده، وعمله، وفكره، وخططه، وحتى صداقته بعبده..

وكثيراً ما كانت «دلال» تتشارك مكالمات تليفونية، ثلاثية أو ثنائية مع «عبده» و «سيد»، أو مع «عبده» فقط.. وقد سعد الأخير بهذه المهاتفات كثيراً، كون «دلال»، إحدى قارئاته، اللاتى يندمجن، فى فواجعه، من إخمص القدم، وحتى قمة الرأس، مكرسات فكر التصعب، والمصمصة، على نطاق واسع، وكونها ـ أيضًا ـ قد خاطبته، ومنذ اللحظة الأولى، بلقب «أستاذ» الذى تتحول نفسه ماء رقراقًا صافيًا، حين يُنادى، أو يُخاطب به!

ولكن «سيد»، لم يكُ سعيداً، بالقدر ذاته، بل لم يكن راضيًا من

الأساس، عن علاقة الأستاذية، التى يحاول «عبده»، أن يفرضها على دلال، مزاحمًا له، فى المساحة الوحيدة، التى يراها حكرًا إنسانيًا، فرديًا، خالصًا، لا يود إهداءه إلى «عبده»، أو دعوته لاقتسامه معه!

وكان تأكيد هذه الخصوصية، يحتاج إلى قدر من العلنية فى علاقة «سيد» بدلال، وهو الأمر الذى حجَّمه وحاصره، وجود «چينيفر دون بروفسكى»... ديدبان «سيد» الذى يراقبه، آناء الليل وأطراف النهار، مخافة أن يقفز كالمملوك الشارد من فوق أسوار قلعة ارتباط الزوجية.. أو يتخطى حواجز وحدود صيغ التعاون الإقليمى!

وقد بلغ من صرامة رقابة «چينيفر» على «سيد»، أنها استأجرت مخبرًا أمريكيًا اسمه «وليام تالبوت»، من موظفى المباحث الفيدرالية الأمريكية FBI السابقين، كان قد جاء إلى المحروسة، مع الذين جاءوا.. لانعرف متى؟ ثم هام فيها على وجهه مع الذين هاموا.. لا نعرف كيف؟ واستقر به المقام فيها مع الذين استقروا.. لا نعرف لماذا؟!

كل ما نعرفه أنه أصبح ـ من فرط الخلطة والمعاشرة ـ قادرًا، على أن يصطنع ـ بنصف إتقان ـ تخلقه بخصال، وطباع، أولاد البلد، أما العربية، فيتحدثها بإتقان كامل، وطلاقة، ولهجة مصرية لا لحن فيها... ثم هو منتشر فى كل مكان، بحيث أصبح من الطبيعى أن يلتقى مجموعات من الصحفيين، والمثقفين على مقهى الفيشاوى

بسيدنا الحسين، وأن تراه متسكعًا فى مبنى سوق الأوراق المالية، أو مجالسًا بعض الخبراء فى مراكز البحوث، أو محتسيًا الخمر مع فنان تشكيلى، أو متبتلاً فى صلاة مع كاهن كنيسة، أو زائرًا لأحد رموز الحياة الحزبية فى بيته، أو مصطحبًا خادمة أحد المسئولين إلى «السيما» يوم إجازتها . .

بعبارة أخرى، فإن «ويليام تالبوت»، أو الخواجه بيل، كما تعود الناس مناداته فى مصر، أصبح لقطة طبيعية جدًا، فى فيلم الحياة اليومية بالمحروسة، ولن يسأل أحد (متى) أو (كيف) أو (لماذا)؛ فالناس مشغولون، والحكومة لن تفعل كل شىء بنفسها، إذ أصبح عليها أن تنسحب من النشاطات الصغيرة والتافهة، إلى (تكملة الجملة ـ هنا ـ «النشاطات الهامة والثقيلة» . . . ولكن نظرًا لأن أحدًا لم يستطع ـ حتى الآن ـ تعريفها بدقة، أو تبينها . . فالأفضل أن نكتفى بانسحاب الحكومة، من دون أن نشير إلى ماذا . . أو إلى أين!!!).

ومنذ أن كلفت «چينيفر» المخبر السابق بمراقبة «سيد»، وهو يقتفى أثره بكل دقة، ونمكية، وقد لاحظ ـ فى البداية ـ كما أخبر «چينيفر»، أن «سيد»، ومجموعة من رجال الأعمال مؤسسى «هشِك»، والصحفى «عبده دسوقى»، يذهبون، بشكل شبه منتظم، إلى شقة فى شارع أحمد حشمت بالزمالك، تسكنها راقصة تدعى «دلال»، وأنه بصدد إقامة علاقة مع خادمتها، كيما تمكنه من الدخول إلى الشقة من باب المطبخ، على السلم السكوندو ـ وذلك أثناء وجودهم ـ حتى يتمكن من مراقبة ما يجرى بالضبط . . ويوم نجح تالبوت فى خطته

للتسلل إلى داخل الشقة، كانت «دلال»، قد دعت المجموعة، بناء على طلب عاجل من المفكر «عبده دسوقى»، وذلك للحديث، حول شراء أصول شركتين للسياحة، وللبيرة، وهما الشركتان الشقيقتان، لشركة المعلومات.

وقد وجه «عبده» دلالاً إلى ضرورة، أن تشارك فى إشعار أعضاء مجلس إدارة «هشِك» بأن الموضوع، قد دخل مرحلة الجد، وأنهم يجب أن يمضوا، ليقطعوا شوطًا، فى عملية شراء الأصول، بالسعر الذى ذكره «عبده»، و«سيد» فورًا، وإلا فسوف تضيع الصفقة، وتذهب إلى مُشْتَرٍ آخر.

ورأت «دلال» ـ طبقًا للتخصُّص وهو (الرقص)، والتخصص الدقيق وهو (الشرقى) ـ أن إشعار المجموعة بجدية المرحلة، من جانبها لن يكون إلا برقصة جديدة، تؤديها ـ خصيصًا ـ «لهشِك»، حتى يخرج أيهم، وقد وقر فى يقينه، أن «هشِك» أصبحت حقيقة واقعة، يغنى لها الناس ويرقصون!! ثم ترتيبًا على ذلك، سوف يشعر كل منهم، بأن حرجًا كبيرًا يلازمه، كونه أصبح متخلفًا، أو متأخرًا عن هذا الواقع، ومقصرًا فى التجاوب مع معطياته، ومقتضياته، وبما يفرض عليهم ـ جميعًا ـ سرعة التحرك، أو إظهار مدى جديتهم!

وعلى هذا النحو، استوفت رقصة «دلال» غرضها تمامًا، فقد أشعرت كلمات الأغنية المصاحبة: «هشِك بشِك. . هشِك بشِك. .

أنا موش ممكن ـ أبدًا ـ أغشِك» كلاً من أفراد المجموعة بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وحجم الدور المنوط به، إذ أصبحت هشِك ـ طبقًا لمعانى الأغنية ـ أمرًا واقعًا، لا غش فيه!!

وقد بذل «ويليام تالبوت»، مجهودًا كبيرًا ـ على الرغم من إجادته العربية ـ فى ترجمة كلمات الأغنية، وشرح معانيها، لجينيفر، غير أنه استطاع ـ من جانب آخر ـ إعداد تقرير تفصيلى بالإنجليزية، لها عن رقصة «دلال»، عبر رصده لوقائعها ثانية بثانية، من مكمنه فى المطبخ، متحملاً تقبيل خادمتها لمرات ثلاث، برائحتها التى يفوح منها عبير البصل والسَّمْنَة!!، باعتبار أن ذلك هو أجرها المستحق عن تآمرها معه..

وقال «تالبوت» فى تقريره الذى علته عبارة: سرى جدًا (Top se-cret) وأرقام 122/35 التى يرجح أنها لا تعنى شيئًا على الإطلاق:

"Dalal moves her waste in a seductive manners, she-continuously - moves her hips, shaking it from one side to another. She is bowing her body by bending her knees until she reaches the lowest point she can shake, then she continues elevating her body by stretching her knees while her hips are - still - shaking in the same manners.. and she continues to shake her shoulders slowly, and then faster to the sound of the beat, while shaking her chest revealing her cleavage to the men surrounging her.

She moves around the room turning around, back and forth.. she's not only dancing, but it's like she feels every single beat in her body."

Your sincere	المخلص
William H.Talbot	ويليام · اتش · تالبوت
3/3/2001	٢٠٠١/٣/٣

وبمجرد انتهاء الحفل، أرسل «ويليام» هذا التقرير، الذى يصف تفصيليًا حركات «دلال» أثناء الرقص، إلى «چينيفر» فاكسيًا، فاحترقت أعصابها، وبدت، وكأن الشيب، قد ضرب فجأة ـ فى حاجبيها، وتهاوت على أريكة فى مدخل شقتها، ممسكة بالفاكس فى يدها لتطالعه كل دقيقة، فى انتظار وصول «سيد»، وقد بلغ عدد مرات قراءتها له، حتى لحظة دخول زوجها من الباب ٩١٢ مرة!!

وما أن مثل «سيد» أمامها، حتى انتفضت واقفة، ومشهرة الفاكس فى وجهه، فيما عيناها محتقنتان، وحمراوان، ككأسين من النبيذ الأحمر!!

وفى لحظة فكر «سيد» بأن الوسيلة الوحيدة لاستيعاب «چينيفر»، هو فى تعريضها لصدمة قوية ومباشرة، حتى تهمد، وتسقط فى براثن شعورها بالنقص، أمام فاتنة كدلال، أو انصياعها لسلطة المصلحة وتعليمات أصدقائها فى البنك الدولى، ومعهد واشنطون، وإسرائيل.

وكان لسيد ما أراد، إذ ما أن أخبرها بأنه يحب «دلال»، ولا يستطيع فراقها، وأن دور هذه الراقصة شديد الأهمية، لنجاح مشروع «هشِك» بجميع مراحله، حتى تراجعت منهارة، وعاودت التهاوى على الأريكة، (وهى أريكة صممت خصيصًا لتهاوى السيدات

البدينات عند اكتشافهن لخيانة أزواجهن)!، ولكنها عادت ـ بعد دقيقة واحدة ـ تستجمع شتات نفسها، وتمتثل لما أملاه عليها عقلها الكبير، الراجح، وتثبت أنها أكثر رزانة، من أن تسقط فى وهدة إثارة أزمة، أو دفع «سيد» إلى المفاضلة بين خيارين، قاطعين، فإما هى، وإما «دلال»؛ لأنها تعرف أنها إذا وضعت ظهر «سيد» إلى الحائط أمام خيار كهذا، فسوف يختار «دلال»، قولاً واحدًا.. حاسمًا.. وقاطعًا!

وصدقت حسبة «سيد» ـ بالضبط ـ حين رأت «چينيفر» أن «دلال» هى حتمية تاريخية، ومن ثم يجب أن تقبلها، وتعترف بها، قبل أية قوة، قبل أى شخص، وذلك حتى لا تظهر، بمظهر الخاضعة، المجبرة، المرغمة على تجرع كأس «دلال»، مسحوقة الإرادة، ذليلة الفؤاد!

وبهذه المنطلقات العقلية، والمنطقية، انساب صوت «چينيفر» بعد أن تغيرت نبرته، لتصبح أقرب إلى صوت الكمان، سائلة «سيد» أن تلتقى «دلال»، وتدعوها على الغداء، وتحكى معها قليلاً عن المشروع، وعن معنى التعاون الإقليمى!!

كاد «سيد» أن يقفز فى الهواء فرحًا، وهو يُصَلِّب ذراعه مثنيًا، كما يفعل لاعبو الكرة بعد إحرازهم هدفًا، أو يميل ساجدًا على الأرض، فيما صدى صوت الجمهور يتردد فى أذنيه (سيد.. سيد.. سيد)!!

فقد شعر أنه قد هزم «چينيفر»، ونهائيًا، بالضربة القاضية الفنية،

ولكن الأكثر مدعاة للسعادة فى نفسه، كان أنه تخلص ـ إلى الأبد ـ من شعور الخوف، الذى لازمه، خشية انكشاف علاقته بدلال، الأمر الذى سيمكنه ـ من دون مراء ـ أن يعلن «دلال» (محمية طبيعية) فى وجه «عبده»، الذى مافتأ يخيم عليها بظل أستاذيته الإجبارى الثقيل، والذى ـ ربما ـ يكون مدخلاً لمشاركة، لا معنى لها على الإطلاق.

وتواصلت اجتماعات المجموعة، بشكل محموم، بينما كان تركيز «سيد» ينصب، على الحملة الإعلانية للمشروع، ورافق ـ وقد أصبح حرًا من كل قيد ـ «دلال» أثناء تسجيلها أكثر من إعلان لشركات المجموعة الشقيقة، وهو ما بدأ التليفزيون، إذاعته، توافقًا مع، ومساندة لحملة: (مصر. هبة رجال الأعمال)، وتجاوبًا مع الرَّش المتواصل، على بعض المذيعين والمخرجين، والمعدين، ورؤساء القطاعات، ومديرى القنوات!

وكان أروع هذه الإعلانات، وأكثرها تأثيرًا فى نفوس الجمهور، إعلان «بيرة السلام»، الذى يُظهر فتاة لعوبًا، ذات كرش، تحتل الشاشة ـ فجأة ـ وفوق صدرها «بادج» مكتوب عليه، بالعربية والعبرية: «سميرة».. ثم تمسك سميرة ـ بيد لها أظافر صناعية، طويلة ومقوسة، وحمراء.. مقطوشة المقدمة ـ زجاجة بيرة داكنة، ومثلجة تعلوها غبشة بخار الماء، وتصب منها فى كوب كبير، فيحدث سرسوب البيرة المنهمر، على سطح السائل الذهبى فى الكوب، صوتًا ما يلبث أن يتحول إلى إيقاع صاخب مفاجئ، ترقص عليه «دلال»،

التى تدخل إلى المشهد، مرتدية بدلة رقص، تناثرت عليها بالترتر حروف: (ت.أ)، وهما حرفان يرمزان إلى التعاون الإقليمى، ثم يلى دخول «دلال» ـ مباشرة ـ غناء عاصف من كورس يقف وراء الممثلة التى تؤدى دور «سميرة»..

«كركر.. بلوللم.. كركركر
كركر.. بلوللم.. كركركر
....
يا بيرة.. يابيرة.. يا بيراااااه
ح تبوسى شفايف سميراااااه».

على حين ترفع سميرة الكوب إلى فمها دفعة واحدة، وتكبل منه بصوت مسموع، ثم تتجشأ بطريقة مقرفة، فيما «دلال» تواصل الرقص، والكاميرا تركز على حرفى (ت.أ) فوق بدلتها، ويسمع صوت جهورى لمذيع، يقول بخطورة: «بيرة السلام.. البيرة التمام»!، ويعقب ذلك ثلاث ثوان من الصمت، قبل أن تظهر على الشاشة عبارة: (هشِك.. راقصون على ساحة المستقبل)!، وإلى جوارها «لوجو»، فيه تكوين تشكيلى لراقصة، وزجاجة بيرة، ومشط كبريت، وكان وضع مشط الكبريت فى اللوجو، مقصودًا لذاته، إشارة إلى سهولة تعاملات البيع والشراء، لبيرة السلام، والتى لن يعوقها عدم توافر الفكة عند أىٍّ من بائعيها.. أو عندهم جميعًا!!

وكانت «چينيفر» تتابع كل هذا النشاط المحموم ـ بسعادة بالغة ـ

ولا تتوقف عن مهاتفة أصدقائها فى أمريكا، أو فى بقية بلدان الشرق الأوسط، لتزف إليهم الأنباء، فقد كان التزامها أمام هؤلاء الأصدقاء، كبيرًا إلى الدرجة، التى تتوارى معها عواطفها الشخصية، الطبيعية، الأنثوية، وحتى عندما كانت تصادف ـ أثناء إشرافها على مراحل العمل ـ «سيد» و«دلال» يخرجان معًا من استوديو سجَّلت فيه «دلال» رقصة إعلانية جديدة، فإنها كانت ـ بمنتهى البرود والثبات ـ تقتصر على لفت انتباههما إلى موعد التسجيل المقبل، أو اجتماع المجموعة الاستثمارية الجديد، ثم تواصل سيرها إلى مقصدها، وكأنها ليست طرفًا فى موضوع آخر معهما.. وكأن علاقة زوجها بدلال، لا تمسها على أى نحو!!

لقد كانت رابطة «چينيفر» بالشركاء والأصدقاء، وراء البحار، أكبر ـ بكثير ـ من علاقتها بزوجها.

. . . .

وفى شوارع المحروسة، كان المارة يشيرون إلى «دلال»، التى أصبح شكلها معروفًا لديهم، من خلال تكرار إذاعة إعلان «سميرة»، بينما توزع ـ هى ـ الابتسامات عليهم، وهى تقود سيارتها البى. إم. دبليو الحمراء، فى طريقها إلى مكتب التوثيق النموذجى فى شارع أمين سامى، وشهقات المفاجأة، أو همسات الوَدْوَدَة، تحيط بها من كل جانب: «دلال.. أهى».. «كل سنة وانت طيباااااااه»... «إيه الحلاوة دى.. البيرة.. الإعلان.. صباح الفل».. ثم.. «آاااه..

دش ش ش ش». . (الصوت الأخير هو صوت سيارة، دهمت أحد المعجبين، أثناء اندماجه فى تحية «دلال»)!!

وما أن وصلت إلى مدخل الشارع من ناحية قصر العينى، حتى رن جرس الموبَيْل، ليحمل إليها مكالمة من «عبده»، يعرض عليها من خلالها أن يدعوها إلى الغداء، بعد الانتهاء من الإجراءات فى الشهر العقارى، فعلقت موافقتها على مكالمة تليفونية تنتظر تلقيها، بينما الحقيقة أنها كانت تود إخبار «سيد» أولاً، بعد أن لاحظت عدم ارتياحه لسلوك «عبده» معها، على حين ـ فى محاولة لتغيير الموضوع ـ أخذت تسرد لعبده الخطوات التى نفذتها ـ حتى الآن ـ وهى تخرج من باب سيارتها، وتغلقه بالمفتاح، وتستعد إلى عبور الشارع، فيما «عبده» ينتظر عند مدخل مكتب التوثيق و«سيد» ينظر إليه بغيظ، كازاً على أسنانه، وقد أحاط به حراسُه من كل جانب. . . ، وداست «دلال» بمشط قدمها اليمنى، على حافة السلمة الأولى فى درج مكتب التوثيق، ومدت قدمها الأخرى إلى السلمة الثانية، فى صعود رشيق، متوافق، ومتبختر، يليق باسمها اللامع فى عالم الفن، ووسطها العامل فى ساحة الرقص!!

4 المواطـــن

صالح محمود صالح

«شـىء دعانى أتبعـك.. بـدّى أتكـلم معـك.. وبشعـــورى

أطلعك.. يا تصيب يا تخيب.. الهوى جسمة ونصيب!!»

«جزمة قديمة» . . !

هذا الوصف . . الموجز، والبليغ ـ فى آن واحد ـ ربما كان أكثر ما يلخص، ويبلور رؤية «عبده دسوقى»، للآخر! . . أيًّا كان هذا الآخر، خصمًا، أو عدوًّا، أو صديقًا، أو قريبًا، أو حبيبًا!

فقد أدرك «عبده» ـ مبكرًا ـ أن أساس احتلال مكانة متميزة فى المحروسة، ليس العلم، أو الخلق، أو الموهبة، أو الكفاءة، أو غير ذلك من المعايير البالية، والمقرفة، التى تم اغتيالها ـ منذ زمن طويل ـ على أيدى كتائب إرهاب اجتماعى، وتنظيمات عنقودية ثقافية، تروِّع المجتمع لصالح صناعة الجهل، ومؤسسة الفساد!!

وإنما رأى أن احتلاله لهذه المكانة المتميزة، لا يكون إلا، بتحقير من حوله، وإشعارهم بأنه قادر على إهانتهم، وإذلالهم، وتركيعهم . . إذ ترسَّخ ـ فى الضمير العام ـ أن القادر على إهانة الناس، وإذلالهم، لابد أن يكون متنفذًا، ذا سلطة، وجاه، وسيارات، وشاليهات، وحرَّاس شخصيين يحملون الطبنجات، وقادرًا ـ إذ داست ابنته المخمورة مواطنًا تحت عجلات سيارتها؛

فأردته قتيلاً ـ على إخراجها من القضية، كما تخرج الشعرة من العجين، وعلى جعل أبى الضحية، يظهر على شاشة التليفزيون، ليوكد أن ابنه، هو الذى كان مخمورًا، وأن البنت حاولت ـ بنبل حقيقى ـ أن تتفاداه، إلا أنه ألقى بنفسه تحت عجلات السيارة، بتأثير لوثة الخمر.. ثم يختتم بتوجيه الشكر إلى الفتاة، وأبيها، ومدير مرور العاصمة، والإعلاميين، والسادة ملاَّك وحائزى الفيللات فى التجمع الخامس، ومحافظ البنك المركزى!

«عبده» الذى لطالما تعلق من شعره، وضوء البطارية فى عينيه عند الفجر، ليجيب عن سؤال خشن حائر، ليس له إجابة فى رأسه: «أين الشاى.. أين الجاز.. أين الزيت؟»، يعرف ـ حق المعرفة ـ كيف تعمل عوامل التعرية الاجتماعية، أو السياسية فى نفوس الناس، وتُسلِمها، مكبلة، أسيرة، كسيرة، إلى سلطة الخوف، وشعوره المطبق، الذى ينشب الأظافر، فى القلوب، وفى الصدور، فيشعر الخائفون، أنه كفُّ الحياة، التى أطبقت عليهم، فحولتهم إلى عصف مأكول!

الخائفون من الفقر، الخائفون من المجهول، الخائفون من الآخرين، الخائفون من أنفسهم.. والخائفون من الخوف.. هؤلاء ـ باستمرار ـ كانوا حوارييه الذين يختارهم، بعناية فائقة، ليسيروا حوله، ومن خلفه، مزقًا باليةً، وقد أصبحوا يعرفون، أن طريقهم إلى رضاه، وربما إلى صعودهم، يتوقف على قدرة أى منهم، أن

يلوك الإهانة، ويستطعمها، ويقبل أن يرصع اسمه، بوصف: «جزمة قديمة»!

كان خوف «عبده»، في (الماضي)، سببًا ـ الآن ـ في عدوانيته الدائمة، ومحاولة إذلاله، وتركيعه للآخرين، فضلاً عن ازدواجيته، والصورة النمطية الزائفة، التي صنعها لنفسه.. ولكن هذا الخوف ـ في النهاية ـ كان مواجهًا، أو موجّهًا إلى عساكر مباحث التموين فحسب.. أما خوف الناس ـ اليوم ـ من (حاضرهم) و(مستقبلهم)، فقد كان أكبر، وقد كان أخطر، إذ ـ ربما ـ قضى هذا الخوف، ليس على حيثيات احترام الناس لأنفسهم، ولكن على اقتناع، هؤلاء الناس، بمبررات وجودهم!!

خوف «عبده» كان من أفرادٍ، وخوف الناس أصبح من أوضاع!

والخلاص ـ في نظر هؤلاء الناس ـ لم يعد الحلم بتغيير هذه الأوضاع، التي خُلقت لتبقى، ولكنه أصبح الحلم بالخلاص البدني، من أسر قبضة الخوف الخانقة!

الخلاص لم يعد المقاومة.. الخلاص أصبح الرحيل، الذي قد يعني ـ ضمن معانيه ـ الموت، وهجرة هذه الحياة، التي هانوا عليها، حين أخافتهم، وأرعبت قلوبهم في كل لحظاتها!.

وإلى أن يأتي موعد هذا الرحيل، فعلى الجميع أن يتقبلوا، ويلوكوا، ويستطعموا الإهانة!

ومن هذا المدخل، كان «عبده» ـ دائمًا ـ يجد من يقبل، بأن يكون

«جزمة»، ثم يرضى بأن تُنعت هذه الجزمة، التى قَبِل أن يكونها، بلقب «قديمة»!

ووصف الجزمة، بالقديمة ـ فى الواقع ـ ليس تدليلاً على أية قيمة تاريخية، أو متحفية، لكنه إشارة إلى قلة قيمتها، وحقارة مكانتها!

إذ ـ عادة ـ ما يتم انتقالها من أقدام السادة، إلى أقدام الخدم، فى الأحياء الراقية، ومن ثم يهبط مستوى انتسابها الاجتماعى، درجة، أو بضع درجات، فتصبح جزمة «الأسطى»، أو جزمة «الجناينى»، أو جزمة «البواب»، أو جزمة «السفرجى».. بعد أن كانت ـ أيام العز ـ جزمة «البك»!

أما فى الأحياء الشعبية، فعادة، ما تتم الإطاحة، بأية جزمة قديمة، إلى سطوح منزل مجاور، أو تسريبها إلى خرابة موحشة، لتجاور ـ فى الحالين ـ مجموعات غير متجانسة، من زملاء هذا الوجود، بين أطلال العدم.. علبة سالمون خالية، وموتور مروحة قديمة، وقفص جِريد محطَّم، وعدة زجاجات فارغة، وفأران، ومزق قماش بالية، وعلب أدوية انتهى تاريخ صلاحيتها، وبقايا حقيبة مدارس جلدية.. المنظومة الشعبية التقليدية، التى يطلق عليها اسم «الكراكيب»، وهى ما أصبح سمتًا مميزًا، للحياة المصرية المعاصرة، يجاور ـ فى حميمية ـ الناسَ، المسحوقين، المهشمين، المحطمين، الذين تجاوزوا ـ هم أيضًا ـ تاريخ صلاحيتهم.. فمعادلة الحياة بين فقراء المحروسة، أصبحت لا تستقيم مع (ناس من دون كراكيب)

لأنهم يخشون التخلُّص من كراكيبهم، خوفًا من عدم القدرة على استعواضها.. فما حصل أحدهم عليه اليوم، لن يحصل عليه غدًا.. كما أن هذه الحياة صارت ـ أيضًا ـ لا تستقيم مع (كراكيب من دون ناس) يعيشون معها، وحولها، فى الخرابات، والأسطح، وأماكن إقامتها المفضلة، والمختارة، فيأخذون بحسها، وتأتنس بهم!!

ومن ثم فقد أعلنت كراكيب الأشياء، وكراكيب الناس، حلفًا مقدسًا، يقوم ـ بالدرجة الأولى ـ على مبدأ عدم التخلى!

....

حتى «عطيات».. لم تتجاوز نظرة «عبده» إليها هذا المعنى، فما كان يراها إلا واحدة من هؤلاء، الذين يسيرون خلفه، وحوله: الخائفون من الفقر، الخائفون من المجهول، الخائفون من الآخرين، الخائفون من أنفسهم، الخائفون من الخوف!

وقد كان أول ما استلفت نظر عبده» إليها، وأشعره أنه وجد ضالته المنشودة، ومن ثم تشجَّع على المبادرة إزاءها، هو انسحاقها البادى، الذى ولَّدته حياتها فى سوق الكرشة، مع زوج أمها الحشَّاش، وتسعة من الإخوة.. وهذا الانكسار فى عينيها، الذى استقطرته من تجربتها، حين أصبحت بدبلومها، مثل قليوب، تقف فى منتصف طريق تحديد هويتها، ولا تستطيع حراكًا أبعد من هذه النقطة، أكثر من تلك العتبة!

خرجت من وسط كراكيب الناس، وكراكيب الأشياء، الذين هرستهم أوضاع تأسست لتبقى، ودفعتهم إلى هجرة الحياة التى هانوا عليها، حين أخافتهم، وأرعبت قلوبهم، والتى أجبرتهم على تقبل الإهانة انتظارًا لموعد الرحيل. . فأصبحت عطيات ـ بعناصر تكوينها هذه ـ كائنًا مهمشًا، خاضعًا، هو الأكثر مناسبة لعبده، الذى لم يرتبط بغيره، وعاش معه لحظات الأرننه، سواء فى غيطان الأذرة، خلف مدرسة قليوب التجارية للبنات، أو فى عشش المنيل، والتى حرص على عدم الانتقال منها، ضمن خطة المداراة والخداع، المحيطة بصعوده الاجتماعى، والمالى.

علاقتها به لفَّتها، أسوار السرية، والكتمان، ولم يكُ أمامها، إلا القبول، والتسليم، والاستسلام، كمساحات متاحة للحركة، فى إطار هذه العلاقة.

دائمًا هى الخاضعة له، دائمًا هى المبهورة به، حتى حين كان يحولها إلى ميدان رماية، وساحة تدريب، يجرب فيها مقولاته السياسية، عن نبض الشارع، والأصابع التى تلعب فى الظلام!

وعندما تجاسرت على طلب الزواج، جاء هذا الزواج عرفيًّا، يعيش أزمة تحديد هوية. . مثلها، ومثل قليوب!!

بل إن العامل الرئيسى وراء قبول «عبده» لمنطق، أو مبدأ الطلب أساسًا، ثم لهذا الطلب بالذات، كان خشيته أن يدفعها الإحباط ـ إذا ما رفض ـ إلى إفشاء سر هذه العلاقة.

ومثل كائن أصيل من كائنات الخوف، كانت «عطيات» تعيش أسيرة،

فى براثن القلق، وأحاسيس عدم اليقين، التى تدفعها ـ باستمرار ـ إلى توقع كارثة عند الأفق، كونها واحدة من الذين تعودوا أن تجتاحهم المصائب داهمة، مباغتة، فى أية لحظة، ومن ثم فقد ظلت بعد أن تزوجها «عبده» عرفيًّا، محتلة بهاجس الخوف، من أن يهجرها، ومُتلبِّسة بعفريت اسمه عدم الاعتراف بهذا الزواج العرفى.

ومن ثم.. وبعد تردد مرتعش طويل، وتقديم ساق، وتأخير الثانية، والدخول فى دوامة معقدة متشابكة من الحسابات، والوصول إلى نتائج غير مجدية، من مقدمات أقل جدوى!، حسمت «عطيات» أمرها، فى ضرورة استشارة محام، لتعرف مدى القوة، أو الالتزام، الذى يمكن أن يحققه لها عقد الزواج العرفى.

لم تجد سوى الأستاذ «عبد الحليم غريب» المحامى.. الذى كانت ترى لافتته السوداء، على أحد بيوت شارع «سيدى عوّاض»، وهى رائحة أو غادية، ثم سمعت من زوج أمها ـ مرة ـ أنه أحد المترددين على سطوح بيتهم، فى سوق الكرشة، لضرب الأنفاس، وسط المجموعة متباينة «المشارب»، التى تزور سطوحهم، يوميًا!

وما أن دخلت «عطيات» إلى مكتب الأستاذ عبد الحليم حتى تشاغل ـ كعادة من يتوخى ادعاء الأهمية ـ مقلبًا فى أوراقه، وفاتحًا أحد الملفات، وواضعًا نظارة القراءة، وخالعًا لها، وماطًّا شفته إلى الأمام تأملاً وقرفًا، كشيمة المثقفين، وساندًا أصبعه على صدغه كالتقليد المتبع عند معظم رؤساء التحرير المصريين الجدد، والذى ـ

بدونه فيما يبدو ـ لا يتمكن المرء من الكتابة، ولذا فمن المرجح أن أحد مؤهلات تعيين هؤلاء كانت مدى انسيابية أصابعهم، أو بضاضة أصداغهم!!

حمدت «عطيات» اللهَ، على المدة التى استغرقها هذا الفاصل من جانب الأستاذ «غريب»، إذ أعطتها فرصة لاستجماع شجاعتها، ولملمة شتات نفسها.. وما أن بادءها: «خير؟!»، حتى ارتعشت من جديد، واهتزت نبرات صوتها، وضاعت، لا تعرف من أين تبدأ، فنادى الأستاذ عبد الحليم على كاتبه، طالبًا لها كوبًا من الماء.

ارتشفت «عطيات» بعض الماء، وابتلعت ريقها، فيما أنفاسها تتابع، وصدرها يعلو ويهبط، ثم تعثرت، خائفة ـ فى البداية ـ كونها تخطت الحواجز، أو اخترقت الكود الاجتماعى، الذى رسم حدود حركة كتائب الخوف، وهى عضو أصيل فيها، ودفعها ارتباكها إلى انهمار دموعها، التى بللت صدرها وسلسلتها الذهبية المتدلية من رقبتها.. ثم استجمعت نفسها ـ مدفوعة برغبتها فى الحفاظ على «عبده».. قاطرتها إلى قدام، ورافعتها إلى فوق ـ وانطلقت كالديزل الفرنساوى، الذى يمرق كل يوم، من أمام مقر عملها فى عمر أفندى، تحكى ـ لمحاميها كل شىء.. الدبلوم، وغيطان الأذرة، والبيچاما الكستور، وشقة المنيل.. والزواج العرفى.. و..

والأستاذ «عبد الحليم غريب» يدّون ملاحظات، فى نوتة صغيرة، حول كل ما قالته «عطيات»، ماطًا شفتيه تأملاً وقرفًا ـ مرة أخرى ـ كشيَم المثقفين، أو ساندًا إصبعه على صدغه، كوضع الكتابة عند

رؤساء التحرير!، ومتكلمًا ببطء شديد، وناظرًا، إليها بعينين ناعستين، مبللتين، ومبتسمًا على الدوام!

شعرت «عطيات» بأنها أقدمت على عمل انتحارى، بمقدار ما قد يؤدى إلى خسارتها لكل شىء، فإنه يمكن أن يصبح جسرًا «لتغيير» أوضاع حياتها، على نحو يخالف القانون الاجتماعى، والثقافى السائد، الذى يحرم كتائب الخوف، من أن تشارك، فى صناعة، أو صياغة الحياة، ولا يترك لها، إلا طريقًا، واحدًا، مفتوحًا، وسالكًا، هو الرحيل البدنى موتًا، أو البقاء على قيد الإذلال، وقيد الإهانة!

أصبح لها دور ـ للمرة الأولى ـ فى كتابة نص حياتها، بل وفى وضع الفواصل، والنقاط، وعلامات التنصيص أيضًا!

وقطع الأستاذ «عبد الحليم» استرسالها، طالبًا منها عمل توكيل له، حتى يباشر تحركه القانونى، ثم فاجأها بأنه يعرفها، حيث رآها ـ أكثر من مرة ـ وهو فى طريقه إلى السطوح، وابتسم متمتمًا: «لا تفكرى فى الأتعاب، فسوف أعرف كيف أتقاضاها من زوج أمك!»، وأتبع بضحكة خشنة مقرقعة، تليق بحشاش عريق!

ولما لاحظ الحيرة، والربكة اللتين استقبلت كلماته بهما، فهم أنها لا تعرف كيف تحصل على هذا التوكيل، فاستدرك: «سوف أكون فى القاهرة، يوم السبت المقبل، ويمكن أن ألقاك أمام الشهر العقارى بشارع أمين سامى، الحادية عشرة صباحًا، ثم أردف غامزًا بعينه:

«ولن أخبر زوج أمك بشىء عن موضوع الزواج العرفى»، وضحك، ضحكة مقرقعة أكثر حشيشية، ومن ثم أكثر عراقة!

. . . .

وفى الموعد المضروب، كانت «عطيات» ـ وقد اخترقت حاجز الخوف ـ تسير بخطوات هى مزيج من الثقة، والاستبياع!، مع الأستاذ «عبد الحليم غريب»، فى الطريق إلى مكتب التوثيق النموذجى، بشارع «أمين سامى» حاملة جريدة، وحقيبة يد تحتوى الأوراق المطلوبة. . والبداية كانت مبشرة جدًا، حيث الأستاذ «غريب»، يرد تحايا الفراشين، والموظفين، وبعض من الجمهور، ممن لهم سابقة معرفة به، أو ممن يشعرون بالألفة والاعتياد إزاء شكله، وملامحه من فرط ما تردد على المكان، (الذى لم يبارحوه، طوال الأشهر الماضية، فهم فى رباط مقيم، انتظارًا للانتهاء، والفروغ من بعض أشغالهم، ومصالحهم، المعتقلة منذ زمن، فى سجن الانتظار!!) فيما فردت مجموعة منهم بعض الأَسِرَّة من النوع «السِفرى»، وارتدت مجموعة أخرى، ملابس النوم، والأرواب، والشَباشب، وأخذت طريقها إلى الحمامات العامة، للاغتسال، وارتداء ملابس الخروج، التى تعد الزى المناسب، للوقوف فى الطوابير الرسمية!، على حين استعدت مجموعة ثالثة، لاستقبال ضيوف من جمهور إحدى المصالح الأخرى المجاورة، جاءوا لوصل حبال الود، والاطمئنان، والونس، فضلاً عن تناول «فنجان قهوة»، يعده أصدقاؤهم المقيمون، على «سبرتاية» جلبوها معهم ـ خصيصًا ـ

لهذا الغرض.. بينما إحدى السيدات منهمكة فى غسيل ملابس أسرتها، وقد بلل الماء بعض مناطق جلبابها، فالتصق الجلباب بجسمها مفصحًا عما لا يصح الإفصاح عنه، فيما رغوة الصابون، تغطى ذراعيها حتى الكوعين، وذهب أساورها، المشتراة بثمن ربع البيت الذى ورثته عن أبيها فى «زينهم»، يبرق فى المناطق التى انكشف الصابون عنها، وهى تغنى مسريةً عن نفسها: «مرجحنى بس بحنيه.. أوعى الهوى يلعب بيّا.. وياخدنى لفوق.. وأموت م الشوق..»، ثم تسرع من إيقاع الغسيل، حتى تتمكن من نشره، قبل أن تذهب، وزوجها، وأولادها للوقوف فى الطابور، على فترتين (من الساعة التاسعة صباحًا إلى الساعة الواحدة ظهرًا.. ومن الساعة الثالثة حتى الساعة الخامسة من بعد الظهر)، وبعد ذلك تخلد للراحة، وينغمس الأولاد فى المذاكرة، بينما يذهب الزوج، حاملاً الطاولة، لمجالسة زميل فى الطابور المجاور!.

والمشهد كله يعكس جهل الجمهور، وعدم انضباطه، المؤدى إلى تأخير مصالحه، وعدم تمكين الموظفين، من أداء عملهم، بالدقة، والسرعة المناسبتين!.

....

مجمع التوثيق النموذجى بشارع أمين سامى، هو مقر لعدد من المكاتب، التى تقع فى بناية، كانت تسمى «عمارات العرايس»، ويتردد فى أضابير المكان، أن سبب التسمية يرجع إلى أن هذه

العمارات، كانت مخصصة لسكنى حديثى الزواج، ثم - فى وقت ما.. ولسبب ما، يرجح أنه قلة الإقبال على الزواج، أو ضعف القدرة على السكن، أو عدم الرغبة فى الحياة - تم تخصيص المبنى للشهر العقارى، وأصبح يضم مكتب توثيق «السيدة زينب»، ومكتب توثيق«الموسكى»، ومكتب توثيق «قصر النيل» الذى يتعامل - بحكم التعريف - مع الأكابر، ومن ثم فهو محل غيرة، وحسد من المكاتب النظيرة، والشقيقة!

صالات المجمَّع، صممت، بحيث يصبح لكل من الموظفين الجالسين فيها، مَطَلّ على المدخل، الذى يتقاطر منه أفراد الجمهور، فرادى، أو فى طوابير طويلة، وجو المكان عصفت فيه رياح الفوضى، ببقايا النظام، واستحالت الساحة مولدًا صاحبه غائب!

وإلى ساحة هذا المولد دخل المحامى وموكلته بجسارة حمقاء.. فقد دلفت «عطيات»، والأستاذ «عبد الحليم غريب»، إلى أحد المكاتب، فدهمهما التدافع، والضجيج، وابتلعهما الزحام، وذابا بين الناس، كفص من الملح!

المكاتب رصت، حول كل صالة فى شكل المربع ناقص ضلع، وهى مكاتب متنوعة المشارب والأصول، بعضها من الصاج، أيام كان «إيديال» هو المحتكر لساحة الأثاث الحكومى، وبعضها الآخر من الخشب، والبعض الثالث من مواد يصعب تحديد كنهها بسهولة!

البطء، والتراب.. هما سيدا الموقف بلا منازع، وقد أعطاهما

التفرد، والاستئثار بالقمة، ولمدة طويلة، فرصة إضافة ومراكمة، وتكييف، بعض العناصر الجديدة، فى شكل سيطرتهما الكاسحة على المكان، باختلاط رائحة التراب بالعرق أحيانًا، أو بتسبب البطء، مع الحر الشديد والزحام، فى زيادة الشعور بالاختناق، ومن ثم المزيد من العرق، أحيانًا أخرى، ثم بإضافة عنصر انسكاب كوب من الماء، أو زجاجة كازوزة، على الكليم الذى يغطى الأرض، تتحول رائحة التراب والماء ـ مع مرور الوقت ـ إلى لون من ألوان «الكمكمة»، ثم إذا دخلت على الساحة رائحة الحلبة الخضراء، التى زرعتها موظفة، على حرف الحَلْق السفلى، لإحدى النوافذ، يصبح المناخ مكمكمًا مشوبًا بالعطانة!!

على الحوائط، عدة لوحات مكتوب عليها، بخطوط عربية بديعة. . (يا رب)، والمرء يشعر بها، صارخة، حارة، تشرخ الصدر، وتصدر عن أعماق القلب، ولكنه لايعرف من الذى يدعو، سواء كان من الموظفين، أو المسئولين، أو المواطنين، فضلاً عن أن أحدًا لا يفصح عن كنه بقية الدعاء!

شباشب، فوق الدواليب، وفوط معلقة على مسامير خلف كل مكتب، لزوم الوضوء، والدعاء من جديد. . . (يااااارب)، ولا أحد ـ أيضًا ـ يستطيع التعرف إلى كنه بقية الدعاء!

سيدات محجبات وسمينات، من اللاتى يعلو أظافرهن طلاء متآكل، تتصببن عرقًا، فيما مجموعة من مراوح «أوشا» يعود تاريخها

إلى أيام «مؤتمر باندونج»، تبذل، مجهودًا فوق طاقتها، وعمرها، من أجل التهوية والترطيب، والسيدات يتحدثن ـ بصوت عالٍ ـ فى التليفونات، ويتغامزن على زميلة غير محجبة، باعتبار أنها أُس الفساد، وأنها تذهب إلى الكوافير، وتسمح له بأن يلمس شعرها، وأن إحداهن سمعتها تتفق مع صديقتها فى التليفون على الذهاب إلى السينما، فضلاً عن أن أكثر من زميلة فى المصلحة، تعرف أنها على وشك شراء موبَيْل!

«عطيات» والأستاذ «عبد الحليم» يستوقفان ساعيًا لسؤاله عن أحد الموظفين، قال المحامى إنه المسئول عن عمل توكيل خاص، من أجل رفع دعوى صحة توقيع، على عقد الزواج العرفى، والساعى يشيح بيده فى وجهيهما، كون الأستاذ «عبد الحليم» لم يعرف عنه اهتمامه كثيرًا، أو قليلاً بموضوع البقشيش.

ملعقة مبططة من الصاج، فقدت كل معالمها، واستداراتها، تحدث جلبة على حواف أكواب الشاى، التى يقوم الساعى بتقليبها، على صينية من الصاج أيضًا، بينما تلاقت فى ملابس هذا الساعى ثقافات، عدة مؤسسات مصرية كبرى، فالسترة من مخلفات هيئة النقل العام، والسروال الأبيض تحتها لعسكرى شرطة، والصندل فى الأقدام من مخلفات عمال بوتاجاز التعاون، وأصابع قدمى الساعى تطل منه، فيشعر بتحرر، وعدم التزام، وقدرة ـ لا نظير لها ـ على تحطيم القواعد. . وهو مندمج، مشتبك، فى مشاجرات مع بعض الموظفين،

لانتزاع أى بقشيش منهم، عساه يفلح، فى مراكمة المبلغ المناسب لشراء بنطلون چينز، وِحزام بتوكة على شكل رأس ثعبان!

نشالة تمر بين المكاتب باكية، متشهنفة، ومدعية أن كيسها قد سُرق، وأنها لا تملك أجر مواصلة العودة إلى بلدها، فيما ينتهز أحد أفراد الجمهور الفرصة، متظاهرًا بتعاطفه معها، ومقدمًا طقم شهامة وهمى، ساحبًا إياها خارج المكاتب، وداعيًا إلى ذهابهما إلى منزله لإحضار النقود. . والنشالة تتظاهر بالاقتناع، فرِحةَ ببختها، الذى قادها إلى ما هو أهم من النشل كثيرًا!

«عطيات» و«عبد الحليم» يحاولان الحديث إلى الساعى، مرة أخرى، فلا يعيرهما أى التفات، مشيرًا إلى واحد من الجمهور يقف معه، ومجعرًا بعلو الصوت: «يا أستاذ حسيب. . البيه عاوز يعمل توكيل بالرهن، والبدء فى إجراءات الرهن والتنفيذ لصالح البنك» فيجىء الأستاذ «حسيب» بخطوات متعاقبة سريعة، ناظرًا إلى الرجل، من فوقه إلى تحته، ومردِّدًا ـ بخطورة، واندهاش: «إجراءات رهن وتنفيذ لصالح البنك؟!!»، ويهز رأسه ثم يقول للرجل بحزم: «اذهب إلى مدام «ليلى». . غرفتها فى آخر الممر على اليمين»، ويجرى الرجل إلى حيث أشار الأستاذ «حسيب»، فيخبرونه أن مدام «ليلى» خرجت إلى غرفة السيد الوكيل، فى الطابق الثالث، فيصعد الرجل السلم متقطع الأنفاس إلى غرفة السيد الوكيل، الذى يجيبه ـ لدى سؤاله عنها ـ بأن مدام «ليلى» ذهبت إلى إجازة لوفاة ابنة خالة

أبيها، فى البجلات ـ دقهلية، وأن الحاجّـة «فردوس» فى الدور الخامس، هى التى ستحل محلها، وما أن يصل الرجل إلى مكتبها ـ وهو يشهق عساه يصيب بعض الأوكسچين ـ حتى يجد الحاجة «فردوس»، وقد اكفهرت، واندمجت فى موشّح منغم للشكوى، مع الإلقاء فى غضب، بالملفات، والأقلام على المكتب، والحديث عن أن ذلك ليس عملها، وأن الجميع تركوا مكاتبهم، وقد تسلح كل منهم بحجة، وأنها. . فقط التى تحمل مسئولية العمل فى هذه المصلحة السائبة، وتتبع بالنفخ ضجرًا، حتى تتطاير رابطة عنق الرجل، وشعره إلى الخلف. . ثم تلتفت فجأة إلى الرجل متسائلة: «هوه حضرتك عاوز إيه؟» فيجيبها بكلمات متقطعة مجهدة: «توكيل. . الرهن. . البنك. . تنفيذ. . إجراا. . .» ثم يسقط مغشيًا عليه، فيدخل عدد من السعاة، وأفراد الجمهور ليحملوه إلى الخارج، ويضعوه إلى جوار زملائه المواطنين، الذين تجرى لهم إجراءات التنفس الصناعى، وتدليك القلب بالكهرباء، ويمرون بالظروف الصحية نفسها، فى أعقاب اجتيازهم التجربة ذاتها.

صوت صيحات جماعية هادرة، وآهات يأتى من الخارج، فتلتوى أعناق الجميع، ناحية الأبواب، وتسأل إحدى الموظفات: «مين»، فيجيبها أكثر من صوت: «الزمالك. . حازم إمام»، بينما يسارع أحد الجالسين، إلى فتح الراديو، وتحويل مؤشره بسرعة، إلى أن يلتقط المحطة، فيضع الراديو على المكتب، ويصيخ الجميع السمع فى اهتمام وترقب، ويشير أحدهم بأصبعه إلى فمه، طالبًا من الأستاذ

«عبد الحليم غريب» الإنصات، بعد أن همَّ الأخير بالسؤال عن الأستاذ «صالح» رئيس القسم، والذى جاء إليه لعمل توكيل خاص من أجل رفع دعوى صحة التوقيع على عقد الزواج العرفى!!

قط يسير تحت الأقدام، وقد علا مؤخرته خاتم النسر، إشارة إلى أنه القط الرسمى المعتمد للمصلحة، وإلى أن الشهر العقارى خلو من مسئولية قيام أى قط آخر، متسلل إلى المبنى، بمطاردة الفئران، إذ أن التبعات الإجرائية والقانونية، تقع ـ هنا ـ على عاتق الفئران، حين لا تدقق فى هوية، وصفة القطط التى تطاردها!

بعض الموظفات افترشن مكتبًا لتناول غذائهن المكون من سندوتشات مكرونة بالصلصة، أحضرتها إحداهن من رجل يبيعها على ناصية الشارع، وقد أنشبن أسنانهن فى السندوتشات، يظللهن شعور جماعى، بالبلهنية والحبور! فيما فردن قرطاس طرشى إلى جوار الطعام، وتسابقت الأيدى ذات طلاء الأظافر المتآكل فى التقاط قطع الخيار، واللفت، وقرون الفلفل، وترافق مع ذلك بضع ضحكات بلهاء يتبادلنها، حين عجزن عن إبداء مشاعرهن الحسية، المتعلقة بالطعام بطريق آخر!

«عطيات» والأستاذ «عبد الحليم» ـ وقد بدا عليهما الإنهاك ـ يسألان الزملاء، من أفراد الجمهور، عن رئيس القسم، الأستاذ «صالح محمود صالح»، الذى جاء إليه لعمل توكيل خاص، لرفع دعوى صحة التوقيع على عقد الزواج العرفى، فيجيبهما أكثر من

زميل أنه يمر على المكاتب، لدفع الموظفين إلى سرعة إنجاز مصالح الناس، فيما يتبع بعضهم بالدعاء الحار للحاج «صالح»، الذى لولاه، ما عرف الناس أى مصير ينتظرهم!!، ثم يردف أحدهم بدعوة الأستاذ «عبد الحليم» و«عطيات» إلى كوب من الشاى، إلى أن يعود الحاج «صالح»!

أحاديث متبادلة بين الموظفين، والموظفات، والجمهور، عن العيال، والامتحانات، وأسئلة الكيمياء الصعبة، التى وضعها من «ينشكّ فى قلبه»، والبنت التى تتحدث مع صديقتها، فى التليفون طوال الوقت، من دون أن تعد كوب شاى لأبيها، ولحم الجمعية الملىء بالشغت، والمتجر الجديد الضخم، المتخصص فى ملابس المحجبات فى بولاق الدكرور، والذى يقدم تصميمات حديثة، تخفى السمنة، وتجعل من شكل مرتدياتها أشبه بحوريات الجنة.. والخل الذى يذهب الزفارة من السمك إذا نقع فيه قبل تتبيله، وفضيحة بنت أبله «أمينة»، التى ضبطتها أمها مع ابن الجيران، وهو يحضنها ويقبلها، عندما شكت فى أمرهما، فباغتتهما بالعودة مبكرة إلى المنزل، وفتح باب الشقة بحرص من دون صوت.. والمسلسل التحفة، الذى أذيعت أولى حلقاته أمس، للممثل الجديد ذى العينين، الملونتين، فاتح أزرار قميصه حتى سُرته والذى جاء لإصلاح سيارته عن الميكانيكى، فى شارعنا، فخرجت البنات، مقصوفات الرقبة، فى الشرفات، يعاكسنه، وينادين عليه، فيما زغردت بنت

الميكانيكى من فرط الانفعال، ولو فعلتها إحدانا ـ أيام زمان ـ لحُبست فى البيت شهرًا، بعد علقة يتشارك فيها الأب، والأم، إضافة إلى حلاقة رأسها بالموسى على الزيرو!..

ورجل كسيح، مقطوع الساقين، يجلس على لوح خشبى بعجلات ويدفعه مرتكزًا بيديه على الأرض، إلى أن يقفْ على عتبة أحد المكاتب، فيشير إلى إحدى الموظفات صائحًا: «صباح الفل يا أبله»، فتجيبه بالتهلل والانشراح نفسه، ويرجح أن الاثنين لا يعرفان بعضهما البعض!!، وتستوقفه «عطيات»، التى بدأت تتولى التحريات وحدها، بعد أن تهالك الأستاذ «عبد الحليم» على مقعد، من فرط الإجهاد، وتسأله: «أين الحاج صالح رئيس القسم؟»، فيشير إلى ظهر أحد الرجال، الذى انهمك فى حديث متواصل مع أفراد الجمهور، ويقفز الأستاذ «عبد الحليم» من على كرسيه، مندفعًا إلى حيث يقف، الحاج «صالح»، الذى يلتفت إليه ويحتضنه مربتًا على ظهره، بيده التى تقبض على المسبحة، ،متسائلاً: «أين أنت منذ الصباح يا أستاذ «عبد الحليم»، لقد جهزت لك كل شىء لعمل التوكيل، الذى أفهمتنى أنه من أجل رفع دعوى صحة التوقيع، على عقد زواج عرفى، وسوف يصبح هذا الإجراء، تحفظيًا لأية عقبة، قد تثور ـ فيما بعد ـ أمام المحاكم حول صحة هذا الزواج، كما سيعتد به، أمام الجهات القانونية، وأى شخص يشكك فى صحته».

وكان الأستاذ «عبد الحليم غريب»، قد تشاور فى الأمر ـ تليفونيًا ـ مع صديقه القديم، الحاج «صالح محمود صالح»، قبل أن يأتى

الأول إلى مكتب التوثيق لإنهاء الإجراءات، حيث يعد الحاج «صالح»، خبيرًا، «عُقرًا» صاحب صيغ، وحلول إدارية، وقانونية، لا تخر الماء، وهو قِبلَة عديد من كبار المحامين الذين يستشيرونه، ويأخذون برأيه.

اصطحب الحاج «عطيات» والأستاذ «عبد الحليم» إلى مكتبه لإتمام أوراقهما، وابتسامة هادئة وديعة، تعلو وجهه البش، وهو يحيى المواطنين، ويرد على أسئلتهم بكل أدب واحترام، فيما يبادله المواطنون الاحترام، ويدعون له هامسين، بالبركة والستر، كلما مر بهم!

لقد عاش «صالح»، وهاجس اسمه يتلبسه، فأراد أن يصبح اسمًا على مسمى، وبالطبع لايكون الصلاح، صلاحًا، إلا عندما يصير المرء، فى نظر أُولى الأمر، مواطنًا صالحًا، استوفى مسوغات الاعتراف به؛ ليحمل هذا اللقب، الذى عز على كثيرين ممن تورطوا فى استقلالية مقيتة، ليس لها ما يبررها!

وعبر حياة طويلة، وحافلة، اختزل الحاجُّ، صفات المواطن الصالح، واستوعبها، ووعاها، وبلورها فى نفسه، وحرص على توخيها، فى مسلكه، وحديثه، حرصه على حياته ذاتها!

فقد تعود «صالح» ـ مشاهدة نشرة الأخبار الأخيرة فى التليفزيون يوميًّا، حتى يتعرف على الخط، ثم ينام مبكرًا بعد احتساء فنجان من شيح البابونج، ليصحو مبكرًا، أيضًا، جاهزًا، وحاضرًا، حتى

إذا صادف مذيعًا تليفزيونيًا، يستقصى رأى الناس، فى الشارع، وسأله عن أزمة صربيا، أو موقف «شارون»، أو هروب المليونيرات، أو انتخابات مجلس الشورى، أو ضريبة المبيعات، أو قانون المرور الجديد، يستطيع أن يجيب، من دون لعثمة سياسية، أو أمنية، ويضمن أن إجابته سوف تكون فى الإطار، وعلى الخط، وأنها ستجيء متوافقة، ومترافقة، مع ما تريده الإدارة، فى هذه اللحظة بالذات، كما ينبغى على المواطـن ـ فـى هذا السيـاق ـ أن يمتـلك مـن المرونة، والليونة، مايجعله قادرًا عـلى التحول، والتكيـف ـ فـى أية ثانية ـ كون مواقـف الإدارة، وميولهـا ـ بطبيعتـها ـ متغيـرة، بحسـب الظروف، والأحوال والأحداث، والأخطاء!.

ومن ثم فقد أثبت «صالح» ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أنه نموذج، أو موديل، للمواطن الصالح.

وقد بنى فهمـه، لـدوره كمواطن صالـح ـ أيضًـا ـ عـلى أنـه ذو شقين، هما: (الرد) و(التصدى)، فالرجل رأى رسالته على أنها: «تفهيم الناس غلطهم»!!، وأنها مواجهة أعداء البلاد، بدءًا من «قناة الجزيرة»، وانتهاء بـ«توماس فريدمان». . وقد استخدم ـ فى ذلك ـ تقنية إقناع مصرية مائة فى المائة، تقوم على تحويل كل ما يحدث فى المحروسة، إلى ظواهر عالمية، فإذا وقع عندنا زلزال، تجد المواطن الصالح، يتصدى، متبنيًا لفكرة، أن الزلازل، ظاهرة عالمية!!

وإذا قبضت الشرطة على شبكة دعارة، يرد المواطن الصالح،

بأن: «الدعارة ظاهرة دولية»، (وقد يتبع بهز أحد كتيفه، استخفافًا، واستهانة).. وإذا ذاعت أخبار هروب بعض رجال الأعمال الذين اقترضوا ملايين الفلوس من البنوك، يرد المواطن الصالح، ويتصدى، قائلاً: «إن الهروب ظاهرة عالمية»، (وهنا غير مطلوب هز الكتفين، أو أحدهما، على الإطلاق)، وإذا تحدث أحدهم عن سخافة برامج التليفزيون، يرد المواطن الصالح، مؤكدًا: «إن السخافة ظاهرة دولية»!.

والقصد من تدويل هذه الظواهر، إنما يكمن فى تحويلها إلى نوع من القدر الذى يصيب الكبير، كما يصيب الصغير، ولا حيلة لابْن آدم، فى رده، أو تفاديه، أو ـ بالضرورة ـ تغييره!.

ولقد كان لدى «صالح»، حشد آخر من المؤهلات، والمسوغات التى تثبت بجلاء ـ أنه مواطن صالح، فهو مؤمن بأن معدن الإنسان المصرى يظهر عند الشدائد، ولذا يواظب على المشاركة فى إحياء الليالى السياسية بحضور الندوات والمناقشات المملة لخبراء مراكز الدراسات والبحوث، والمقاليست العاملين فيها، ثم إنه حصل ـ لمرات ثلاث ـ على شهادة الموظف المثالى فى مكتب التوثيق النموذجى، بالقصر العينى.

وقد حضر ـ كذلك ـ كل الدورات التدريبية، التى نظمتها وزارة العدل، لموظفى الشهر العقارى، للتدريب على كيفية إستخدام الحاسب الآلى، والإبحار فى صفحات الإنترنت (شبكة

المعلومات الدولية ـ World Wide Web)!، وأصبح شديد المهارة، بكل المقاييس المحلية، والدولية!

وفوق هذا كله، فقد كان كثير المواظبة، على متابعة التراث الإبداعى «لعمرو خالد»، و«عبده دسوقى»!

وقد جعلت منه هذه العوامل ـ جميعًا ـ مواطنًا صالحًا فى نظر الكل.. حكومة وأهالى، أغلبية وأقلية، وطنيين وتطبيعيين!

والحقيقة أن «صالح» ـ فى مسيرته الطويلة والحافلة ـ كان رجلاً عصاميًا، اعتمد على نفسه فى بناء شخصيته، وصورته كمواطن صالح، فقد كان مقتنعًا ـ بالفعل ـ بأن شيئًا لو استغلق على فهمه، فلابد أن تكون وراءه حكمة، وأن الحكومة ـ لابد ـ تعرف هذه الحكمة، وأنها ـ ربما ـ سميت «الحكومة» من «الحكمة» فى ذاتها، ولأن فوق كل ذى علم عليمًا، ولأنها صاحبة التوكيل التجارى للتأمل، والتدبر اللذين يستولدان عشرات النظريات، أو ما اصطُلح على تسميته بالحكمة، أو لأن بعضًا من أعضائها، يجيدون المصمصمة ـ استعجابًا ـ وهى الحركة التى يستتبعها النطق بكلمة: «حِكَم»!!

وهكذا، فإن الحكومة، بالتصاقها بمعنى الحكمة ـ على هذا النحو ـ ستفعل ما فى مصلحة المواطنين، وما فى مصلحة «صالح»، وصحيح أن بعض قصار النظر، قد لا يدركون ـ فى الحال ـ أبعاد ما تقرره لهم الحكومة، ولكن ـ بمرور الوقت ـ سيعرفون (غلطهم)، ويعضون بنان الندم، على إساءتهم الظن بحكومتهم!

وإذا مرت بالوطن، أو بصالح، أحداث سعيدة، فإنه ـ فوراً ومن دون تردد ـ ينسب هذه الأحداث إلى سعى وجهد الحكومة، حتى لو لم تعلن الحكومة على سبيل إنكار الذات، وعمل المعروف وإلقائه فى البحر ـ أنها صاحبة الأحداث، أو مخططة الإنجاز!.

على حين إذا مرت بالوطن، أو بصالح، أحداث حزينة، أو كئيبة، فإنها ـ فى نظره ـ ليست مسئولية الحكومة، وإنما هى نتيجة للمؤامرات، والأصابع التى تلعب فى الظلام.. وأنها اختبار من السماء لمدى إيماننا، واختبار على الأرض لمدى وطنيتنا!

كان «صالح» مؤمنًا ـ فعلاً ـ بهذا كله، وزيادة، فقد تلبسته روح، وصورة المواطن الصالح، التى تعنى ـ فى مخيلته ـ ضمن ما تعنى، أن كل من حوله أطهار.. أخيار.. شرفاء، يعيشون فى حبور، ووئام، ومحبة، مصداقًا للشعار الغنائى الشهير: «كل الناس حلوين.. فِ عنيّا حلوين»!

وبهذه النظرة الصافية، الرائقة، كانت قراءات «صالح»، واندماجاته، فى مقالات «عبده دسوقى»، وفواجعه الساذجة التى حاول بها أن يخفى بها حقيقته، ويرسم ملامح صورة نمطية لنفسه، بوصفه قديسًا يذوب حبًا فى الناس، وشمعة تحترق من أجلهم!

هؤلاء الناس، الذين لاتتجاوز نظرته إليهم، اعتبارهم أحذية قديمة، ومزقًا بالية، ينبغى أن تسير حوله، ومن خلفه، فى انكسار، ومذلة!

ولقد أراد «صالح» ـ بوصفه مواطنًا صالحًا، يعلم أن أولى صفاته ينبغى أن تكون (الإيجابية)، و(المبادرة) ـ أن يطور علاقته بعبده دسوقى، الذى أصبح مثلاً يحتذى عند جماهير المحروسة. . كون الجماهير ـ بطبيعتها ـ على نياتها جدًا، وإلا لكانت قد أصبحت وزراء، أو رجال أعمال، أو صحفيين أو فنانين. . أما كونها جماهير، فهذا يعنى ـ أولاً ـ أن صفاتها لم تؤهلها لما هو أكثر من ذلك، وثانيًا أن السماء لم ترضَ عنها، ومن ثم استحقت هذا المصير، فقبعت فى وظيفة «جماهير» إلى الأبد!

وتلخصت مبادرة «صالح»، لتطوير علاقته بعبده، فى قيامه بإرسال بضع رسائل، إلى باب «أصدقاء عبده»، وجدت ـ جميعًا طريقها إلى النشر، وكان أشهرها: «فوائد حبة البركة» ،و«مضار مناقشة الحكومات»، فضلاً عن رسالة شهيرة، فى عيد ميلاد «عبده دسوقى» عنوانها: «مصر بخير. . مصر بخير. . طول ما ولادها دول عايشين»!

وأصبح «صالح» من نجوم باب «أصدقاء عبده» الدائمين، حتى اتصل به «عبده دسوقى» نفسه، ودعاه إلى زيارة مكتبه، وهناك أكد العبير الدينى السائد، فكرة «صالح» عن الأستاذ «عبده»، حيث استقبلته السكرتيرة، قائلة: «حللت أهلاً. . . ونزلت سهلاً»، ثم فتحت باب الغرفة والتفتت هامسة للضيف: «رويدك يا أخَ الإيمان»، ولما تأكدت من أن الأستاذ «عبده» قد اتخذ استعداداته، ورسم تعبير

الاستلهام الدائم على وجهه، قالت له: «الأستاذ صالح بالباب.. هلا أدخلته؟!»، فأجابها: «مرحى مرحى.. فليتفضل.. وتأكدى من أنه قد ركن راحلته فى الباركينج»!!، ثم أردف: و«إتنا بكأسين من شراب العُنَّاب المثلج... هاهاهاها»!!

وبهذا المدخل، عرف «صالح» أنه أمام قديس - بالفعل - وأن صورة «عبده» فى ذهن الناس، أقل - حتى - من حقيقته الشفافة، العالية، النبيلة، المفعمة بالإيمان!

وتوطدت العلاقة بينهما، وإنهمرت رسائل المواطن الصالح، على باب «أصدقاء عبده»، لتحتل مكان الصدارة، واستخدمه «عبده» فى إنجاز أوراق كل المجموعات الاستثمارية، التى كان قد أصبح عضواً فى مجالس إدارتها، فى مقابل إيقاف هجوم الصحف الابتزازية عليها.

إلا أن الدور الكبير الذى أعدته الأقدار للمواطن «صالح»، كان فى مشروع «هشّك» الذى تواعد بشأنه اليوم مع الأستاذ «عبده»، على لقاء؛ لإنجاز أوراق متعلقة، ببعض جوانبه.

على أية حال، فقد أنهى الحاج «صالح»، إجراءات صدور توكيل «عطيات»، للأستاذ «عبدالحليم غريب»، الذى استأذن فى أن يسرع خارجًا، لأن لديه جلسة فى محكمة الزنانيرى، وفى طريقه إلى الشارع، عاد الجانب المشرق من علاقته بمكتب التوثيق النموذجى، يتصدر المشهد، حين كان يرد على تحايا الفراشين، والموظفين،

وبعض من الجمهور، ممن لهم سابق معرفة به، أو ممن يشعرون بالألفة والاعتياد إزاء شكله وملامحه، وقد اعتبر ذلك بمثابة ترضية عما لقيه، أثناء بحثه عن الأستاذ «صالح»!.

أما «عطيات»، فقد وضعت قلمها فى حقيبتها وحملت جريدتها، وسلمت على الأستاذ «صالح» بكلتا يديها، متمتمة بالكلمة المصرية التقليدية التى تقال فى مناسبة العرفان: «مانتحرمش»!.

وفى طريقها إلى باب غرفة الأستاذ «صالح»، سقطت حقيبة يدها على الإرض، فانحنت لتلتقطها، وتسمر نظرها، على حذاء لامع، إنجليزى، ماركة «تشيرش»، تعرفه حق المعرفة.. وصعدت بحقيبتها، ونظراتها إلى أعلى، لتجد «عبده دسوقى»، و«د. سيد شندى»، و«دلال الخضرى»، ومن خلفهم «چينيفر دون بروفسكى»، التى لم يدْعُها أحد، ومع ذلك فقد أخبرها تالبوت ـ مخبرها الخاص ـ بالموعد، فجاءت على عجل؛ للمراقبة واستطلاع الأخبار، حيث أصبحت تعمل ـ على المكشوف ـ لصالح أصدقائها وراء البحار فى البنك الدولى، وإسرائيل، وهى تعرف أن عليها دوراً، فى توجيه هذا المشروع، فى لحظة معينة، إلى هدف أكبر من مجرد المال، أو النفوذ فى المحروسة!

وحول المجموعة من كل جانب، كان حراس «سيد»، يتلفتون فى توتر، مخبول، برءوسهم الصغيرة، الحليقة، وأجسامهم المتضخمة المنتفخة، والنظارات السوداء «الأوكليز»، وستراتهم المفتوحة، لتمكنهم من الانقضاض على طبنجاتهم المثبتة على خواصرهم

والتقاطها عند اللزوم، لمواجهة ما يعتقدون أنه الخطر. . والناس فى مجمع التوثيق النموذجى، أخلوا لهم الطريق بسرعة، وارتباك، حين استعاد شعور الخوف، الذى تناسوه لساعات، موقع السيطرة، على كل خلجاتهم، وخفقات قلوبهم. . تركت الموظفات، سندوتشات المكرونة بالصلصة، على حين كفّ الساعى عن تقليب الشاى، أو الحلم بالبنطلون الجينز، والحزام ذى التوكة على شكل رأس ثعبان، وأطاحت السيدة التى تغسل، بالطشت، والملابس، وجرت بعيدًا، متوقفة عن حكاية: «مرجحنى بس بحنية». . وانعقد لسان الناس، على الرغم من أن «حازم إمام» أحرز هدفًا ثانيًا، وتعلق بصر الرجل الكسيح ـ بما يحدث ـ مذعورًا، إذ سيصبح أبطأ الناس هربًا، ما إذا حدث شىء، وظنت النشالة، وهى فى طريقها مع الرجل، إلى الخارج، ثم إلى شقته، أن البوليس قد عرف أنها ستفعل شيئًا أوسخ من النشل، فجاء ليقبض عليها، وتلكأ موشح الشكوى فى فم الحاجّة «فردوس»، ثم توقف تمامًا، وأمسك العيالُ بذيول أثواب أمهاتهم فيما أعينهم تتعلق بما يجرى، فى سماء الدنيا، أو عالم الكبار. . فوق. . فووق! وانخرست إحدى الموظفات، كانت على وشك الاشتراك فى مولد الكلام، بأخبار جديدة عرفتها، عن فضيحة بنت أبله «أمينة»، وعن توزيع جديد للدرجات فى امتحان الكيمياء، بعد احتجاج أولياء الأمور. .

عاد الجميع إلى مواقعهم الأولى، خائفين من الفقر، خائفين من

المجهول، خائفين من الآخرين، خائفين من أنفسهم، خائفين من الخوف!!

. . . .

الخــوف..

ذلك الشعور، الذى تُعتبَر «عطيات» ابنة شرعية له، ومن صلبه، لم يتملكها، أو يسيطر عليها ـ ربما للمرة الأولى فى حياتها ـ لحظة التقت «عبده» على باب مكتب الحاج «صالح»، فقد كانت تشعر، منذ أن بدأت اختراق حاجز هذا الخوف، بلقاء الأستاذ «عبد الحليم غريب»، أن شيئًا جديدًا يتخلق داخلها، وأن الخلاص، هو هدف يخضع تحقيقه لإرادتها، وإصرارها، وقدرتها على الدفاع عن وجودها، حتى لو كان هذا الوجود بين أطلال العدم، حيث تتجاور كراكيب البشر، وكراكيب الأشياء!

كانت تحب «عبده»، وتتعلق به مدلَّهة، ومغرمة، فهو قسمتها، وبختها، وحبيبها، ونصيبها، الذى ذابت فيه، وعشقت كل ما يمت له بصلة، حتى بيچامته الكستور، وخنفرته العذبة الجميلة!

ولكنها، كانت تشعر ـ فى أعماق نفسها وفى الوقت ذاته ـ أنه يهينها، بهذا الإمعان فى السرية، الذى ألقى بها نهبًا لإحتمالات عديدة، من بينها.. فقدانها لعبده ذاته، ومن ثم ارتدادها ـ بسرعة ـ إلى عالم سوق الكرشة، والدبلوم، وعمر أفندى، وهويتها الناقصة!!

لم يكُ صعود «عبده» المهنى الاجتماعى.. لها، وإنما كان عليها،

بعكس ما تصورت ـ أيام قليوب ـ فحين اندفعت قاطرته إلى قدام، وصعدت رافعته إلى فوق، كانت عطيات بعيدة جدًّا عن الاثنتين.. ولم يرها «عبده»، أكثر من كائن خاضع، تابع.. وبنظرة واحدة من عينيه، تتسم بمنتهى الأرننه، يمكن أن يتحول هذا الكائن ماءً تشربه الأرض!!

لم يرها أكثر من واحدة من الذين تعوَّد أن ينعتهم بوصفه الشهير الفظيع القاسى.. (جزمة قديمة)، بعد أن سقط حبه لها، أثناء صعوده المهنى والاجتماعى، وبدأ يعرف أن فى إمكانه الدخول إلى علاقة، مع إحدى هوانم المحروسة اللاتى يذبن فى فواجعه البلهاء، تكريسًا لثقافة التصعُّب، والمصمصة، بعد أن فرضتها سلطة الخادمات.. كما بدأ «عبده» يدرك أن فى مقدوره ـ أيضًا ـ أن يرتبط بواحدة من المتبتّلات، الشفافات، اللاتى ينظرن إليه بوصفه شمعة تحترق، وقديسًا فى زمن السقوط والخطايا..

والجميع، من هذا المعسكر، أو ذاك، لا يرونه إلا: «أستاااااذ»!!

ثم أنه ـ قبل كل ذلك وبعده ـ يمكنه أن يصبح طرفًا فى علاقة مع «دلال»، بالذات، أيًّا كانت طبيعة هذه العلاقة، فدلال أفصحت ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ عن أنها مبهورة به، وفواجعه، التى لطالما شحتفتها، و«عائشة»، كما أنها تعلم ـ بالضبط ـ موقع عبده، فى هذا المشروع، الذى يسعون إليه، وهو ما تتعلق به طريقًا سالكًا لمستقبل أقل وعورة.

و«دلال» فى ـ نظر «عبده» ـ هى المزيج المستحيل تقريبًا، بين الشياكة، والابتذال، وهى بذلك تستطيع إرضاء النازعَيْن، فى نفس أى رجل، أما مسألة ارتباطها بسيد، فهى لا تعجب «عبده» إبتداءً، فقد كانت ثقافته السينمائية الأولى، المستقاة من أفلام سينما التحرير الصيفى، فى شارع المدارس بقليوب، تؤكد أن أجمل نساء الفيلم ينبغى أن تكون من نصيب البطل، و«عبده» ـ بكل تأكيد ـ هو بطل هذه الرواية، فضلاً عن أنه مؤلفها ومخرجها!

لكن «عطيات» كانت قد بدأت مشوارًا آخر على كل حال، ـ فتحت ضغط الخوف من فقدان «عبده» ـ تحررت من الخوف نفسه.. وعلى باب غرفة الحاج «صالح» كان أول اختبار حقيقى كبير لهذه الحقيقة، إذ تلاقت الأعين، «عطيات» فى مواجهة «عبده»... وللمرة الأولى يشعر «عبده» بالخوف أمامها، عندما أحس أن نظرة عينيها تشبه ضوء بطارية المخبر النافذ، حين كان يخترق عينيه فجرًا، فيما شعر رأسه مشدود إلى قبضة ثقيلة، كخف الجمل!

وطبقًا للسيناريو الذى حدده «عبده»، كان على «عطيات» أن تتظاهر، بأنها لا تعرفه، أو لم تره، ثم تمضى إلى حال سبيلها، ولكن عاملاً مباغتًا آخر، تدخَل ليغيِّر مشاهد هذا السيناريو، بل ومسار الحوار أيضًا!

«أهلاً عطيات.. واحشانا».. هكذا نطق «سيد شندى»، بحرارة واحتفال، قبل أن يقدمها إلى «دلال»، و«چينيفر»: «عطيات.. حرم

عبده دسوقى»!، فيما فغر «عبده» فاه، وتجمدت نظراته محتقنة فى جنون، تنظر إلى لا شيء، وقد أطبق قبضته فى غل، محاولاً السيطرة على إحساسه بصدمة الطعنة، التى جاءته من حيث لا يتوقع!

. . . .

كان «سيد» قد حسبها، بالمليمتر، وكسوره، وأعشاره، محللاً ردود الفعل المتوقعة، وتضاعيفها، واحتمالاتها.

فقد لاحظ، وتابع،ثم راقب، طموح «عبده» إزاء «دلال»، وملاحقته لها منتهزًا انبهارها بتراجيدياته الصاخبة، ومستغلاً هشاشتها، وطبيعتها، المسالمة المستسلمة، التى هيمنت على خطواتها، كما يهيمن الإيقاع على حركة وسطها، وذلك فى طريق طويل، بدأ فى شارع أحمد سعيد بالعباسية، وانتهى فى شقتها بالزمالك، مرورًا بواشنطن دى سى، وملهى الجمل اللعوب.

ووصل «سيد» إلى أن حصار، وملاحقة «عبده» لدلال، ووضع حد لها، لا يكون إلا بتصعيد علاقته بعطيات إلى النور، ليصبح ذلك حاجزًا، حاضرًا، ماثلاً، يرسم الحدود، ويحافظ على المسافات، وهو معلوم ـ بالضرورة ـ لدى جميع الأطراف!

ولم يكتفِ «سيد» بهذا، ولكنه واصل، وسط انزعاج «عبده» الصارخ:

«والله بنت حلال يا مدام عطيات. . اتفضلى معانا علشان نعمل شوية إجراءات خاصة بمجموعة هشِك الاستثمارية. . مانتى عارفاها

بتاعة بيرة السلام، اللى بيذيعولها إعلان سميرة، ومشروعات القرى السياحية النموذجية فى جبل الجيوشى، وشركة المعلومات.. النهاردة - تصورى - كنت ناوى أكلمك عشان تبقى مسئولة عن الاتصال بين مكتب الاستشارات بتاعى، وبين «هشِّك» ياريت مايكونش عندك مانع.. اتفضلى..اتفضلى.. دا حتى عبده كان عازمنا على الغدا بعد ما نخلص.. مش كده يا «دلال»؟!.

ران على الجميع صمت كبير، فيما كانت «جينيفر» - التى لم تفهم شيئًا من كل ما جرى - تدفع الجميع إلى دخول الغرفة، لإنجاز الإجراءات المطلوبة، وهى كل ما يعنيها الآن، بعد أن خسرت «سيد»، ومعه أحاسيسها، وعواطفها، بينما رفعت «عطيات» عينيها إلى السماء شاكرة، على كل هذه الاعترافات بها التى لم تتوقعها أو تسعى إليها، وابتسمت «دلال» - فى خباثة - لحركة «سيد»، التى جاءت بعد أن أخبرته - بمجرد وصولها - عن عرض «عبده» لاصطحابها إلى الغذاء.

أما «عبده»، فكان يقطر غلاًّ وغيظًا، وقد استسلم لذراعى «صالح محمود صالح»، وهما يحتويانه، فى حضن كبير، ومفعم بالحرارة مرددًا: «والله حصلت البركات يا أستاذ عبده.. اتفضل.. اتفضلوا ياجماعة... يادى النور»!!

ورأى «عبده» أن يفرغ من الموضوع بسرعة، بعد أن احترقت أعصابه، وانتزع مزاجه بما لايقاس، على حين كانت «چينيفر» التى تستعجل كل شىء، تردد آخر كلمة من كل جملة، وهى لا تفهم هذه، أو تلك، لدفع الجميع نحو الإسراع!

قال «عبده» للحاج «صالح»: «لقد رفضت ـ من البداية وجود محامين، لأننى مقتنع بخبراتك أكثر، فهم مجرد (مناظر) لا لزوم لها. .».

هزت «چينيفر» رأسها مؤكدة: «لها».

وأضاف «عبده»: «وبعد أن شرحت لك أبعاد المشروع، فى جلستنا بالمكتب، فى الجريدة، أول من أمس، فإن كل ما نريده هو معرفة الخطوات التى يجب أن نتبعها فى المشروع»!

فقالت «چينيفر» بحماس: «المشروع»!

ثم تمتم الحاج «صالح» ببضع كلمات، وراح يشرح للجميع، فى تمكن، وسلاسة، وهو يمسح بيده على زجاج، المكتب، علامة على الوضوح، والجلاء:

«موضوعكم من شقين: الأول يتعلق بتأسيس شركة المعلومات، والثانى باستيراد أجهزة الكومبيوتر. . ونظرًا لأن الإجراءات بطيئة، وتمويل البنك لم يصلكم بعد، وكذا قرض البنك الدولى، فسوف نتبع الخطوات الآتية: سيكون (نشاط الشركة) هو: مكتب استشارات هندسية، يقوم بعمل كافة أنواع الاستشارات، بالإضافة إلى توزيع، وتسويق، وتصميم برامج الحاسب الآلى، أما عن (شكل الشركة) فسوف يكون شركة ذات مسئولية محدودة، وبالنسبة لمشكلة التمويل، فيمكن التغلب عليها، بإيداع الحد الأدنى القانونى كرأسمال للشركة بأحد البنوك الوطنية، وهو خمسون ألفًا من الجنيهات، مع استلام

شهادة إيداع، وتقديمها ضمن مستندات تأسيس الشركة، ثم فور التأسيس، نقوم بسحب هذا المبلغ، فى اليوم التالى مباشرة، أو ـ حتى ـ بمجرد تقديم شهادة الإيداع».

فهتفت «چينيفر»: «إيداع»!

ويواصل صالح: «هذا عن شركة المعلومات.. أما عن شركتى البيرة، والسياحة (بيرة السلام ـ المعاهدة تورز) فلقد اشتريتم أصولهما، وهما جاهزتان للعمل مباشرة.. وتبقى بعد ذلك عملية استيراد أجهزة الكومبيوتر، اللازمة لشركة المعلومات، والضرورية لتطوير الشركتين الشقيقتين للبيرة والسياحة.. وأرى عمل توكيل لإحدى الشركات الأخرى، ولتكن مكتب «سيد» بك الاستشارى للتعاقد نيابة عنكم فى شراء، واستلام، وفحص ومعاينة أجهزة الكمبيوتر، على أن تقوم بتوريدها فى أى مكان تريدون، وتقوم بتركيبها، وضمانها».

وصرخت «چينيفر»: «وضمانها»!!

ثم قال «صالح»: «وأنا أُفضل أن يكون التوكيل لهذه الشركة، توكيلاً خاصًّا، وأن يكون التعاقد باسمك.. (يشير إلى عبده) أو باسم أحد رجال مجموعة هشِك حتى لا تقعوا فى مشاكل مصرفية، تتعلق بإصدار خطابات الضَمان بالدولار، والتى أصبحت صعبة للغاية»!

وترفع «چينيفر» ذراعيها إلى أعلى، ملوحةً، وهى تقول: «للغاية.. للغاية.. للغاية»!!

ثم طلبت من «سيد»، أن يترجم لصالح، فأومأ برأسه موافقًا، وقالت: «البلد مصر. . فى حاجة لتطوير نظم المعلومات، والجهات الحكومية لديها معلومات خطيرة».

فتيقظ صالح، وردد خلفها: «خطيرة»!

وأضافت ـ كحية رقطاء- بينما حاجباها الكثيفان يصعدان، وينزلان ببطء، وبشكل شديد التآمر:

«وفى إطار نظم المعلومات الحالية، يصبح الاختراق احتمالاً واردًا، وهذا يفيد أعداء مصر، وبالتالى أعداء السلام، ولكن الشركة الجديدة التى سنؤسسها: (داتا ـ ويب. . أو معلومات العنكبوت) لديها نظم يستحيل اختراقها، ولو على الجن الأزرق».

فقال صالح: «الأزرق»

وعادت «چينيفر» متدفقة فى حيوية: «وسوف نعمل على ترويج هذه النظم من أجل مصلحة مصر، وحماية السلام. . . فالمعلومات ـ فى كل الدنيا ـ هى موضوع أمن قومى».

وتمتم الحاج: «قومى. . قومى. . قومى»، فيما ازداد تفتُّح خياشيمه، واشتعلت جذوة المواطن الصالح فى صدره، وتهيجت رغبته العارمة، فى عمل أى شىء من أجل بلده، وحبايبه، والمجتمع، والناس!

ووجه كلامه لعبده قائلاً: «أما والأمر كذلك يا أستاذ عبده، فأنا

أرغب، فى الإسهام معكم، بكل ما أستطيع، وسوف أضع خبرتى، فى مجال تصميم البرامج، تحت أمركم، ولدى شهادات، تثبت أننى خبرة مصرية نادرة فى هذا المجال»!

وتبادل «عبده»، و«جينيفر» نظرات الموافقة، وكذلك فعلت «جينيفر»، و«سيد».. أما «دلال» و«عطيات»، فكانتا تتابعان بإنصات، كل ما يحدث، فالأولى جزء من المشروع، جاءت ـ طبقًا لنظرية «عبده» فى الاندماج والتقمص ـ لتعايش الأجواء، والثانية، دُعيت ـ الآن فقط ـ لتعمل فى وظيفتين هما (منسق) بين مكتب «سيد» والمشروع، ومن جهة أخرى (كابح) لعبده، فى اندفاعه نحو «دلال»!

أما الحراس، فقد أخذوا يتلفتون، فى توتر مخبول، ثم هزوا رءُوسهم الصغيرة الحليقة، كعلامة على الموافقة، طالما أن د. سيد بك قد وافق!

....

وفى نصف ساعة فقط أنهى «صالح» إجراءات عمل التوكيل لمكتب «سيد»، وإعداد حافظة الأوراق الخاصة بتأسيس شركة (داتا - ويب) للمعلومات، ثم صافح الجميع، متمنيًا لهم، وللمشروع كل نجاح، فيما صدى صوت أغنية وطنية يتردد فى جنبات نفسه: «ده جناحى مرفرف فى سماكى.. والقلب اتربى على خيرك.. بااااالدى ى ى»!

وحين أخذت المجموعة طريقها إلى الخارج، كان «عبده» مستغرقًا

ـ بعمق ـ فى التفكير، فلقد شعر بنفسه ـ ربما للمرة الأولى، فاقداً السيطرة على مجريات أموره، كما وجد ستار السرية، والغموض، والكتمان، الذى أحاط نفسه به، وكذا علاقته بعطيات، وقد اخترقه «سيد»، وفضح كل ما وراءه، ومَنْ ورائه.. هى لحظة من اللحظات القليلة التى وجد «عبده» نفسه فيها غير قادر، على فرض صورة نمطية عن ذاته أمام الناس، كقناع يخفى ملامحه الحقيقية، وشخصيته الأصلية.

وفى لمح البصر، وبقدرته المذهلة، على التمثيل، والتقمص، والاندماج، مد يده إلى عطيات بحنان، ليمسك بها، ثم خنفر مرتين، بمزيد من الحنان، ومضى معها وسط أفراد المجموعة، وكأنه مشهد حب طبيعى، بالألوان، وسكوب أيضًا.. فقد رأى إفساد إحساس «سيد» بالانتصار، أولاً، ثم رأى استيعاب «عطيات»، كيما لا تصبح أداة فى يد «سيد» يحركها كيفما يشاء، سواء تحت تأثير الاعتراف العام بها، على هذا النحو ـ وقد كان «سيد» هو المتسبب الوحيد فيه ـ أو بالوظيفة التى قدمها لها، والتى ستجعلها جزءًا، لا يتجزأ، من المشروع.. وأخيرًا فقد رأى «عبده» ألا ينعزل عن المجموعة، لأن المشروع مازال فى أوله، وهو يريد أن تظل علاقته به موصولة، خصوصًا أن «عبده» هو البوابة الوحيدة، إلى رجال الأعمال أعضاء مجموعة «هشِك»، كما أنه معبرهم الوحيد إلى تلك المجموعة المخططة والمنفذة التى تضمه، و«سيد»، و«دلال»، و«چينيفر»، وقد أضيف إلى عضويتها ـ اليوم ـ الحاج «صالح»، و«عطيات»!

أما «سيد»، فقد لاحظ ذلك كله، فضحك على نفسه، وسُرِيَ عنه، بالذات من منظر «عبده» وهو يلاحق «عطيات»، إذ أن ذلك ـ بالضبط ـ هو ما يريد، فسوف ينصرف نظر وذهن «عبده» عن «دلال»، ويتركها لحالها، ولو إلى حين، وفى الوقت نفسه ستصبح «عطيات»، حارسه المقيم، لأربع وعشرين ساعة خدمة. . برنجى، وكنجى، وشنجى!

وإمعانًا فى تعميق الموقف، وتأكيده، نادى «سيد» على «عبده»، الذى كان يسير مع «عطيات» متقدمًا بضع خطوات متسائلاً باصفرار: «الغدا ح يكون فين يا أستاذ «عبده»، فأجابه باقتضاب أكثر اصفرارًا: «شيراتون الجزيرة. . الكبابجى»!

. . «دلال»، كانت أسعد الموجودين بكل ما يجرى، كونها تشعر أن المشروع فى طريقه إلى الانطلاق بقوة، وأن «سيد» يصعد، ويلمع، وهو الذى كانت لسنتين، تحايل فيه، بينما دموع العين تناديه، ثم أن وجود «عبده» ـ لذاته ـ لا يضر، بل وربما ينفع، فقد استثار غيرة «سيد»، بما سيدفعه إلى مزيد من الاستمساك بها.

وكانت «دلال» تعرف ـ يقينًا ـ أن الطريق أصبح سالكًا أمامها، وأقل وعورة، كما كانت راضية ـ بالقطع ـ عن نصيبها فى العملية، وهو المكون من «سيد» + مبلغ ضخم مقابل حملة الإعلانات الراقصة لبيرة السلام، والمعاهدة - تورز، وداتا ويب: (مجموعة هشّك)!

ومعهم جميعًا كانت «عطيات»، تتنازعـها مشاعـر، وتوقعـات

متناقضة، فهى تعرف أن «عبده» كاذب، فى مشاعره تجاهها، والتى يبالغ فى إظهارها أمام المجموعة، بعد ما فضحه «سيد»، وقد وصل تزيده ـ فيها إلى القمة، حين نادى عليها: «يا عطعط»!!

ثم هى تعرف أن «عبده» سيستشيط غضبًا، حين يعلم بدعوى إثبات صحة التوقيع على العقد العرفى، فحتى الآن، والموضوع محصور، فى هذه المجموعة التى تسير بينها، ولكن إنتقال الموضوع إلى المحكمة، وعلى يد الأستاذ «عبد الحليم غريب» بالذات، سيجعل برجًا من نافوخ «عبده» يطير، لأن الموضوع له خلفيات تاريخية، وعنصر الثأر الشخصى فيه، حاضر، ومؤثر (فقد فهمت من الأستاذ «عبد الحليم» أنه كان لاعب الكرة، الذى جاهر فى ساحة قليوب الشعبية، بالنداء على «عبده»، باسمه مجردًا، فوبخه علانية، وحدجه بنظرة سِمّاوية، كأنها شواظ من نار)!

وهى ـ فوق ذلك ـ تعرف أن الاحتمال وارد وكبير، فى أن تركب العنجهية «عبده»، ويقرر طلاقها، كرد على محاولتها إثبات صحة توقيعه على عقد الزواج العرفى..

ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تكُ كعادتها، منكسرة، أو مسحوقة أمام هذا الاحتمال.. فلو بقى معها ستكون قد حققت حلمها وصانته، ولو رحل عنها، ستكون قد اكتسبت شعورًا جديدًا ثمينًا، هو التحرر من الخوف، وأصبحت ـ أخيرًا ـ واحدًا صحيحًا، بدلاً من الفتافيت، والكسور، التى كانتها وسط كراكيب الناس، وكراكيب الأشياء!

وفوق هذا، فقد ربحت تلك الوظيفة الجديدة، فى مكتب «سيد شندى»، والتى لا تعرف تفاصيلها، أو شروطها، وإن كانت فى الساعتين الماضيتين لم تتوقف عن سؤال نفسها، أية وظيفة محترمة ومهمة ـ هذه ـ التى ستقبل، بدبلومها، ولماذا ـ إذن ـ أضاعت كل هذا الزمن، فى «عمر أفندى»، طالما أن بمقدور دبلومها أن يعبر بها إلى أفق وظيفة كبيرة ومحترمة؟!

ولم يكُ هذا التساؤل الحائر، هو ما يشغل بال «عطيات» فقط، وإنما أيضًا، كان شعورها، الذى لم يفارقها هنيهةَ زمن، إزاء «جينيفر»، فهى لم تبتلع هذه المرأة، ولم تحس بأنها كائن إنسانى، يمكن أن يحب ويكره، ويبكى، ويضحك، مثلنا، بل أحسَّت بها صهريجًا مترعًا بالكراهية، وبأنها تخفى فى رأسها أفكارًا شيطانية، لم يجئ أوان الإفصاح عنها بعد.

«جينيفر»، كانت تضغط ـ فى كل لحظة ـ قنطرة نظاراتها بإصبعها، ثم تمر به، على حاجبيها، يمينًا ويسارًا، فى محاولة يائسة للتجمُّل.

وكانت لا تتوقف عن الحساب، وهى تعرف أن الخطوة القادمة، أصبحت على شفا التحقُّق، وهى الخطوة التى قطعت كل هذا الطريق من أجلها، أو استلزمت كل تلك الغطاءات من المشاريع السياحية فى جبل الجيوشى إلى الإخراج الجديد لشركة البيرة، أو الحصول على القرض ـ بدعم أصدقائها ـ فى البنك الدولى، كما استلزمت ـ قبل هذا كله ـ أن تضغط مشاعرها، وأحاسيسها المطعونة، وتتحمَّل رؤية

«سيد» يضع يده على كتف «دلال»، ويُسِرُّ فى أذنها، بنكتة يرجح أنها تدور، حول أمور لا تحبها «چينيفر»، ولا تحب الحديث عنها، ولا تحب هؤلاء الذين يحبونها، ويتحدثون عنها.. ثم هما يضحكان عليها، ملء شدقيهما، بمنتهى السوقية، وقلة الأدب!

كانت هذه الخطوة. هى: (تحديد وتكييف عمل شركة المعلومات.. داتا - ويب)، فهنا، وهنا فقط من وجهة نظر «جينيفر» ـ يبدأ اللعب، من العيار الثقيل!

كان لديها «كارتًا» لم تستخدمه بعد، وهو أن تقوم هيئة التمويل الدولية IFC، فى البنك الدولى، بإعادة النظر فى القواعد التى تم عليها إقراض «مشروع هشِك»، إذا ما نجح «بنچامين جرين»، فى أن يدخل فى روع مدير هيئة التمويل الدولية، أن الموافقة، والتعاقد قد تما بشروط مجحفة للبنك، وصحيح أنها حالة نادرة جدًا، ولكن كل شىء ممكن على «جرين»، الذى يتحرك بكفاءة، ولكن بحرص شديد، لأن أحدًا لو اكتشفه فى هذه المؤسسة الدولية الكبيرة ذات السمعة، فسوف يضيع، ولن يكون هناك غدٌ.. «أفضل» لأىٍّ من أفراد المجموعة!

وهذا الكارت قابل للاستخدام ـ فقط ـ عندما تشعر «جينيفر» أن رفاق المجموعة التنفيذية، غير متجاوبين بشكل كافٍ، مع خططها التى ستطلعهم عليها!!

لقد كانت مرتاحة ـ جدًا ـ للحاج «صالح محمود صالح»، فهو

شخصية، ساذجة، يمكن خداعها، وقيادها- تحت ظل مقولات وطنية حراقة- إلى ما يخالف مضمون هذه المقولات تمامًا. . فالشكلانية هى المهمة عنده، وهى التى يستخلص منها الانطباعات، ويُكَون الآراء، بالضبط كما خدعه العبير لدينى، الذى يخيم على مكتب «عبده دسوقى»، فى جريدة «خوفو». . ومن ثم فإن مهمة «جينيفر» معه ستكون سهلة.

أما «عطيات»، فهى كائن بادلته «چينيفر» عدم الارتياح، ومنذ اللحظة الأولى أيضًا، إذ لم تخطئ عينا جينيفر تلك الجريدة، التى تحملها «عطيات»، مع حقيبة يدها .. وهى إن كانت لا تعرف العربية، فإنها استنتجت الكثير من رسم نجمة داود المشطوب، فى صدر الصفحة الأولى من الجريدة!!

ولكنها ـ واقعيًّـا وفعليًّـا ـ لم تكره «عطيات» لهذا السبب فقط، وإنما لأنها رأتها ـ كما أفهمها «تالبوت» ـ نصف فلاحة مصرية، من النوع الذى يمكن أن ينبهر بسلطة أى مأمور، وكثير اللجوء إلى الشرطة، بمناسبة ومن دون مناسبة، ثم الذى يتوجس من كل ما لا يفهمه!

وهذه القائمة من الأسباب، كانت أكثر من كافية، لبداية تيار من الكراهية وجهته «چينيفر» إلى «عطيات»، ورافقته بالشكوى المتواصلة منها، لكل من «عبده»، و«سيد»، إلا أن سيد لم يك مستعدًا للتخلى عن هذه الشوكة التى غرزها فى جنب عبده، لتؤلمه، وتشغله وتبعده!

ثم ركزت «چينيفر» على «عبده»، فيما يتعلق بضرورة إبعاد

«عطيات»، هذه البنت غير المهذبة، التى تنظر إليها طوال الوقت، نظرة، هى مزيج من المرارة، والسخرية، والاستخفاف، خصوصًا وأن موقف «عطيات» كان قد تعقَّد مع «عبده» بسرعة، حين تلقى «عبده» عريضة دعوى صحة التوقيع على عقد الزواج العرفى ـ وهو أمر لم يهزه كثيرًا ـ فى البداية، بعدما تلقَّى صدمة الانكشاف الأولى، على يد «سيد»، يوم الموعد فى الشهر العقارى، ولكن ما جعل «عبده» يشتعل بالغضب، والرغبة فى الانتقام، هو رؤيته لاسم عبد الحليم غريب فى عريضة الدعوى.. فعبد الحليم ـ بالنسبة إلى «عبده» ـ كان إصبع الاتهام الدائم، الذى يشير إليه، منذ عشرات السنين!

كان «عبد الحليم» زميلاً فى الدراسة، رافق «عبده» منذ المرحلة الابتدائية، فى مدرسة رابعة العدوية، وحتى الثانوية العامة، حين دخل الأول إلى كلية الآداب، ودخل الثانى إلى كلية الحقوق..

وعلى امتداد سنوات الدراسة، كان «عبد الحليم»، هو الأول فى المدرسة، ولكن الاعتراف العام كان بعبده، إذ اعتبره أهل قليوب.. الأول فى الحياة.. وحيُّوه فى سرادقات الأفراح وهتفوا وراءه على محطة القطار «أهلاً.. أهلاً بالأبطال» لا لشىء، إلا لقدرته الهوَسية، على الاستعلاء، وهو أحد المداخل المضمونة التى يمكن للمرء، فى بر مصر، أن يكسب بها الهيبة والاحترام!

وفى الأوقات التى اعتصر الفقر فيها «عبد الحليم» وفى الأيام التى اقتات فيها على لحم بطنه، كانت أحوال «عبده» ميسورة، من تحت

رأس صفقات السروال، والتليفزيون، والمراين!، وهى الصفقات التى علم بأمرها عبد الحليم، فأصرَّ أن يفضحه؛ ليعرف الجميع حقيقته، فما كان من الأهالى إلا أن تجمع بعضهم، وضربوا «عبد الحليم» علقة مرعبة، مشفوعة بكل صنوف الإهانات، بما فيها الإشارة إلى أخته التى ذهبت لتخدم فى أحد البيوت فى مصر، وعادت حاملاً فى الشهر الرابع!

وتابع «عبد الحليم» مسيرة صعود «عبده» يائسًا، ومحبطًا، وعارفًا أن «عبده» أدرك مبكرًا، أن المعايير قد تم اغتيالها، وأُغلق ملف التحقيق فى قضيتها!! فاختار الطريق الذى لا يعترف أصحابه بهذه المعايير والذى أثبت أنه ـ فعلاً ـ الطريق السالك.

وبدأ «عبد الحليم» يتردد على زوج أم «عطيات»، وانضم إلى مجموعة السطوح، ليقتل التفكير فى عقله، ويهزم الإحساس فى نفسه، باحثًا عن عالم آخر، بلا تفوق دراسى، وبلا أخت، وبلا «عبده»، وبلا مراين، وبلا صحافة!

أدرك أن هذا ليس زمنًا للإفاقة.. بل هو زمن الغياب.

كانت ضحكاته على السطوح، مع المجموعة، أشبه بالصراخ الذى ينتحب حلمًا، تبدد، وانتهى، وكلما رفع رأسه إلى فوق وجد سحابة من دخان الحشيش تمنع الرؤية، وتحجب السماء، فإذا ما بدأت فى الانقشاع، مد يده إلى نجمة متلألئة تلتمع بحيوية، ليلمسها، فيجدها تبتعد، ثم تتستر بسحابة أخرى من الدخان، فيطرق برأسه ـ محبطًا ـ إلى الأرض!

وفى إحدى مرات صعوده اليومى إلى السطوح، رأى «عطيات» وهى التى لم تكُ جميلة أبدًا، ولكن نظرة الحزن العميق، والانكسار فى عينيها، كانت أكبر من الإحاطة بها دفعة واحدة، ومنذ ذلك اليوم لم يستطع أن يبعد طيفها من رأسه إلا أن «عبده» كان ـ دائمًا ـ حاجزًا بينه وبينها، حتى كادت أن تستحيل فى مخيلته صورة لتلك النجمة التى كلما حاول أن يلمسها، ابتعدت ثم احتجبت!

ولسنوات ظل «عبد الحليم» يقرأ فواجع «عبده» المقرفة، التى يعرف أنها الكذب بعينه، والادعاء فى أجلى صوره، أو يرى «عبده» على شاشة التليفزيون ـ من وقت إلى آخر ـ وهو يتحدث عن طفولته فى قليوب، وكيف كان «الأول» فى كل سنوات الدراسة، فيشعر باختناق حقيقى، وشىء يجثم على صدره لا يعرف كنهه، ومن ثم يذهب إلى السطوح ـ من جديد ـ ليقتل التفكير فى عقله، ويهزم الإحساس فى نفسه.. ثم..

ثم تقدم له الحياة مكافأة مزدوجة، بزيارة من «عطيات» إلى مكتبه، وبقضية ضد «عبده»، رأى أنها أول خطوة فى فضحه كمانيكان للزيف، وتمثال للكذب!

كان «عبده» ـ باستمرار ـ ينفض رأسه من صورة «عبد الحليم»، إذا ما تبدت ماثلة أمامه، إذ كان يعنى ـ بالنسبة له ـ الحقيقة، التى لا يريدها أن تتحقق، أو تتفسر، وكان يعنى ـ بالنسبة له ـ الاتهام، الذى يريد أن يتجنبه ويفلت منه.

ثم ها هو «عبد الحليم»، يطل من جديد على «عبده»، بل وينال منه، فى أولى جولات اللقاء الثأرى بينهما.

امتلأ «عبده» غضبًا، وأحس أن «عطيات» مكّنت منه واحدًا من أكبر أعدائه.. وسلمته إلى شخص حقود، حسود.. جزمة قديمة!!، وفقد أعصابه، وقرر تطليق «عطيات» والتخلص منها، بعدما أصبحت سلاحًا نفاذًا ماضيًا فى يد عدوه «عبد الحليم» من جهة، ومنافسه «سيد» من جهة ثانية..

واستقبلت «عطيات» قرار «عبده»، بحزن كبير، إذ شعرت أن قطعة أثيرة من عمرها قد ضاعت، وفصلاً كبيرًا من كتاب حياتها، قد طويت صفحاته بغير رجعة.. ولكنها وجدت فى الأستاذ «عبد الحليم غريب» تحنانًا، ورعاية، ومحبة، ساعدتها، على تجاوز الموقف، والامتلاء بالإصرار على أن تعيش.. واجتهدت فى عملها مع «سيد»، مستشيرة الأستاذ «عبد الحليم» فى كل شىء، حتى ينصحها ويأخذ بيدها، ويشرح لها ما غمض عليها!

....

وفى الشهور الأولى لعمل مجموعة «هشك» كان الجميع منهمكين، كل فى مجاله، فدلال مشغولة - يوميًا - فى تسجيل إعلانات راقصة جديدة، أهمها كان عن شركة (المعاهدة - تورز)، والذى تم تصويره، فى استوديوهات مدينة الإنتاج الإعلامى، بعد تصميم ديكور ضخم على شكل جبل الجيوشى، يقع بعد حوض الدولفين، على اليمين.. وكذلك إعلان (الداتا - ويب) الذى صور تسعة عناكب فى حفل تكاثر

ولقاح، تعطى فيه الذكور ـ كما فى الطبيعة ـ إشارات للإناث، بنوع من البريق، فى الأعين، فتقوم الأنثى، بوضع البيض، فوق نسيج خيوط العنكبوت، على شكل ديسكات معلومات، وتقوم الذكور ـ كما يحدث فى الطبيعة أيضًا ـ بتلقيح البيض، بينما الأنثى تحمل الديسكات على ظهرها، وتبقى معهم لرعايتهم. . و«دلال» ترقص فى الخلفية، مرتدية بدلة رقص من خيوط، على شكل شبكة العنكبوت!.

و«عبده»، و«سيد»، مشغولان بمراقبة، بعضهما البعض، فالخيانة، مادامت قد وقعت مرة، فليس هناك ما يمنع وقوعها مرات.

و«جينيفر» تستغل، هذه الحزازة المُرة، وتلعب على المتناقضات لتحقيق ما تريد، وتنجح فى إقناع المجموعة، بانضمام «ويليام تالبوت»، إليهم، لمواهبه، وكفاءاته، فى عمليات جمع المعلومات وتبويبها.

و«تالبوت»، أو الخواجة «بيل» ـ بعد أن عرف مداخل «صالح» من خلال وسوسات «چينيفر» ـ يخترع فى كل يوم طريقًا، يخاطب به وطنية الحاج «صالح» وحماسه الحكومى، منقطع النظير، مشيراً إلى مصلحة مصر، كيما يدفعه إلى بذل مزيد من الجهد، فى تصميم البرامج، والذى تطور إلى قيامه بجلب ملفات معلومات، عن الوزارات والإدارات الحكومية، من الشهر العقارى!

«جينيفر» تنسج، وتصطاد، بالضبط مثل العناكب الناسجة، والعناكب الصائدة، وهى تفرز نسيجها حول الجميع، فتخنقهم بنعومة هذا النسيج، وتعقده، وتغرز شوكتها فى أجسادهم لتحقنهم بسائل غدتها السامة، فتقتلهم وتتخلص منهم!

لقد دفعت «سيد»، ووجَّهته ـ فى البداية ـ إلى ضرورة الاتفاق مع عدد من مؤسسات الدولة الإدارية، لإعادة تنظيمها، وتصميم برامج لتبويب معلوماتها، مثل كشوف أسماء العاملين، وسير حياتهم الوظيفية، وهيكل الرواتب. . إضافة إلى بيانات بعض مؤسسات القطاع المصرفى، حول نوع استثماراتهم، وضوابط الإقراض، ومدى توافر السيولة. . وكذلك معلومات الجباية، ومحاولة الحصول على بعض الملفات السرية، حتى لو اقتضى الأمر، سرقتها، وبالذات الإقرارات، والوثائق التى توضح حجم ديون أصحاب الملفات. . ثم ـ بالذات ـ ما يمكن جمعه من المعلومات عن وثائق هيئة الاتصالات، سواء كانت قوائم أرقام المشتركين، والأرقام التى يطلبونها ـ باستدامة ـ فضلاً عن المؤسسات البحثية والعلمية، والجامعات، لمعرفة خطط بحوثها، واتجاهاتها، وكذلك بيانات ديوان المحافظة للوقوف على معلومات السجل المدنى والنشاطات التجارية.

ولم يكن مشروع «هشك» يهم «سيد» إلا فيما يخص المركز المعنوى، وتحقيق وجود ثقيل، يضعَه على القمة بين السياسيين فى المحروسة، وقد عرفت «چينيفر» كيف تضغط على هذا الجانب فى اهتمامه، واضعة عشرات الخطوط تحت فكرة أن هذه هى نقطة تميزه الحقيقية، والوحيدة على «عبده». . فاندفع «سيد» يتحرك فى عشرات من مؤسسات الدولة، مقيمًا جسوراً مع مسئوليها، وموظفيها، وداعيًا إلى العشرات من قعدات دلال الصاخبة، التى كان عمادها رقصتى «هشّك بشّك». . . «وسنتين وانا احايل فيك»!

والنتيجة . . .

آلاف الأوراق، والديسكات، والشرائط والملفات!

و«چينيفر» تواصل نسج خيوطها، وأليافها، كعنكبوت ضار، خرج مهتاجًا، جائعًا للصيد، وأخذ فى تحديد مكان فرائسه، باللمس، والنظر، عبر عقله المركب، ناشرًا عشرات من شباك صيده، بخيوط بروتينية أقوى تحملاً ومقاومة للانكسار من الصلب، بفضل مرونتها!

وحين لاحظت «جينيفر» أن «عبده» ينأى بنفسه، عن الاشتراك فى العمل - بوصفه زعيمًا أولاً، ثم لأنه لم يعد يحب المجىء إلى مقر الشركة، حتى لا يرى «عطيات» أو «سيد» - لوحت له، بكارت إبطاء الحصول على قرض البنك الدولى، أو إيقافه، فبدأ بخطوات مترددة فى البداية، ثم ادعى أن هذا ليس مجاله، وأنه لا يعرف كيف يكون اسهامه، ثم عمل - بنشاط محموم - بعد ما ذكرت «چينيفر» أمامه، أن «سيد»، قد أصبح نمرة واحد عند أصدقائها فى الخارج، وعند رجال الأعمال أصحاب «هشك»، الذين اتصلت بهم، وأفهموها، أن رضا أصدقائها فى الخارج يهمهم جدًا!

ولم تكتف بذلك، بل حددت لعبده الوسائل والطرق، مؤكدة أن فى إمكانه إضافة معلومات كثيرة، من خلال شبكة المحررين، فى جريدة «خوفو»، حيث تصب فى مكتبه - يوميًا - مئات الأخبار التى ليست للنشر!

وانطلق «عبده» يمد «چينيفر»، بشلال من الأخبار، متسلحًا برغبة عارمة، فى إقصاء «سيد» عن المرتبة رقم واحد، التى قالت «چينيفر» إنه احتلها!

وتعقدت شبكة الخيوط، وتداخلت، واتصلت بشبكات أخرى أكثر تعقيدًا، وتشابكًا! والجميع يعملون تحت شعارات السلام، والتعاون الإقليمى، ومصلحة مصر فى الاثنين!

وبدأت «عطيات» تحس أنها غير قادرة، على متابعة ما يجرى، حتى من أجل أن تنقل صورته إلى «عبد الحليم»، الذى تستشيره فى كل شىء، كما كان عملها كمنسقة يتيح لها - فقط - التعامل مع النتائج، وتقديم تقارير متابعة عن سير الشغل، والاتصالات «لسيد»، ومن ثم فإن معلوميتها بالمقدمات كانت محدودة، ولكنها - على الرغم من هذا - كانت لا تبتلع ما يحدث، وقد ظنت - فى البداية - أن سبب إحساسها - هذا - هو كراهية «چينيفر» لها، وحجبها للمعلومات المهمة عنها، ولكن بعد ذلك استقر فى نفسها أن شيئًا رديئًا ما، يحدث فى هذا التجمُّع.

إذ استشفت «عطيات» هذا المعنى، من خلال مناقشاتها مع «عبد الحليم»، الذى بدأ يوجهها، بحساسية شديدة، وتدريجيًا، نحو أساليب للحركة، ومعلومات معينة عما يجرى، كيما تبحث عنها وتسلمها إليه.

ولاحظت «عطيات»، أن «عبد الحليم» فى الفترة الأخيرة، ومنذ رفع قضية صحة التوقيع، أصبح فائقًا جدًا، واختفت معالم الحشيش من على سحنته، فلم يعد كلامه بطيئًا أو متعثرًا، ولم تعد عيناه ناعستين مبللتين بالدموع، كما اختفى شبح الابتسامة الدائمة من على شفتيه!

وفى أحد لقاءاته معها، طلب منها «عبد الحليم»، أن تأتى معه لتتعرف بثلاثة من أصدقائه، تهمهم نشاطات الشركة، ويمكن أن

يكونوا مفيدين لها، وبالذات فى دفعها لتحتل مرتبة أهم عند «سيد شندى»!

ولما وافقت «عطيات» على طلب «عبد الحليم» الذى وثقت فيه بالكامل، اصطحبها إلى نادٍ على النيل فى المعادى، وقدم الطرفين إلى بعضهما البعض: «عطيات. . السيد وصفى. . السيد علاء. . السيد طلعت».

وفى هذه الجلسة عرفت «عطيات» الحقيقة. .

وأدركت أنها ـ من دون أن تدرى ـ قد وقعت فى خيوط عنكبوتية، لأكبر، وأخطر شبكة تجسُّس عرفتها مصر. . وأن أجهزة الأمن تراقب منذ مدة، وحتى من قبل بلاغ الأستاذ «عبد الحليم غريب»، كل ما يجرى، وبالذات بعد أن حصلت على أحدث الأجهزة الإلكترونية، لمراقبة البريد الإلكترونى، وسائر العمليات التى يستفيد منها مستخدمو جهاز الكمبيوتر، وخصوصًا الإنترنت، وهى الوسيلة التى يتم بها نقل المعلومات إلى الخارج ـ أو كما قالت «جينيفر» ـ إلى أصدقائها وراء البحار.

وطلب الرجال الثلاثة من «عطيات» أن تواصل إمداد «عبد الحليم» بالمعلومات، وأن تكون جاهزة للشهادة فى القضية، بمجرد أن يتم سقوط هذه الشبكة!

. . . .

وفى الطريق إلى الخارج، كانت أمواج أفكار صاخبة عاتية، ترتطم بجوانب نفس «عطيات»، وتغسل عنها غشاوة، بقايا عواطف بلهاء،

قديمة، وتفتح عينيها على دنيا جديدة، وعالم بأسره، ربما كان أهم ملمح له هو عبد الحليم. . الذى شعر أنه ربما ـ اليوم. . واليوم فقط ـ قد لمس نجمته التى تعلق بها!

وتتابعت الأحداث فى اليومين التاليين، لتقوم الشرطة بالقبض على «عبده» و«سيد» و«صالح»، و«تالبوت»، و«جينيفر»، على حين تم الإفراج عن «دلال» من سراى النيابة، وذهبت «عطيات» ومعها «عبد الحليم»، إلى مديرية الأمن للإدلاء بأقوالهما، فى القضية التى شرح «عبد الحليم» لعطيات أنها تخضع لأحكام المادة (٧٧ب) من قانون العقوبات، حيث يعاقب بالإعدام كل من سعى لدى دولة أجنبية، أو تخابر معها، أو مع أحد ممن يعملون، لمصلحتها للقيام بأعمال عدائية ضد مصر».

وعلى باب مديرية الأمن، نزلت «عطيات»، والأستاذ «عبد الحليم غريب» درجات السلم ببطء، تلفحهما نسمة هواء منعشة، فيما مشهد القاهرة يتألق، بحالة من حالات الفوران، ضجيجًا وازدحامًا. .

صبى يحمل خبزًا بلديًا على جريدة، فوق رأسه، فيما يقود دراجته، متقمصًا شخصية آلة تنبيه، وصائحًا: «أعوعااااااا». .

ورجل يحمل بعض عقود الفل، ويلتصق بزجاج السيارات، المتوقفة فى إشارة المرور، ممارسًا البيع بالإحراج، ومستثيرًا مشاعر النساء، الراغبة ـ تلقائيًا ـ فى إدانة الأزواج، الذين فقدوا رومانسيتهم، ولم يعودوا مثل زمان، وضاع الحب من قلوبهم التى صارت كالحجر!

سثلاث سيارات تسد الشارع، محملة بمجموعة من الشباب والشابات، وقد خرجوا بجذوع أجسامهم من النوافذ، رافعين أصابعهم بعلامة النصر، مادين أياديهم لتمسك بأطراف علم نادى الزمالك، الذى يظلل موكبهم، فيما أصوات آلات التنبيه تواصل الصراخ، بإيقاع منتظم، يفصل بين كل هتاف للأولاد: «زاااماليك . . زاااماليك» . .
وأحد المارة تبدو عليه مخايل الهيبة، والوقار، ينظر إلى الموكب، طويلاً، مراوحًا نفسه، و- فجأة - يرقص رقصتين، كافيتين - فى هذا السياق - لإشباع النازع الراقص لديه، ثم يهتف للنادى، مخرجًا صورة كبيرة مطبقة لحازم إمام من جيبه، ويفردها أثناء الرقص، ثم يطويها، بسرعة ويواصل طريقه، مستعيداً وقاره، ومتشحًا بالهيبة من جديد . .
وسيدة بدينة، تطل من إحدى النوافذ، وقد ملأ جسمها، إطار النافذة، فاستحال، مربعًا، مصمتًا من اللحم الحلال، وهى تواصل - فى عصبية - فدغ حبات من الترمس بأسنانها، ثم تطيح بلب الحبة - بلسانها - إلى نفق بلعومها، المعتم، وتبصق القشرة، بصوت مسموع، لتسقط فوق رأس أحد الجالسين، على المقهى، أسفل العمارة، حتى استحال دماغه لوحة تجريدية بديعة من اللونين الأسود والأصفر!
وسيارة تتلكأ بجوار فتاة، وتقف مرة واثنتين وثلاثًا، فيما الفتاة، مطرقة إلى الأرض، ولكنها ترفع وجهها بسرعة، من آن إلى آخر، من أجل أن تخطف نظرة إلى نوع السيارة، وشكل الشاب، الذى يقودها، ثم بعد أن اتخذت قرارها، تسرع الخطى، لإنهاء هذه الفقرة الأخطر فى سياق العملية كلها، وتجذب باب السيارة، الذى انفتح،

قبل أن تصل، ثم تدلف بسرعة، لتغطس فى المقعد، مغلقةً الباب، وبادئةً فاصلاً من الكلام المكرر المحفوظ، عن أنها أول مرة تركب مع شخص لا تعرفه، وأنها ليست كما يتصور، وأنها نوع آخر من البنات، فيما تمد يدها على ولاعته، وعلبة سجائره، الموضوعتين إلى جوار الفتيس، وتنظر إلى المرآة للتأكد، من أنها تبدو فى صورة مناسبة!!

وجنازة تمر أمام الجميع، فيرفعون أصابعهم إلى أعلى متشهدين، فيما تمصمص بعض النسوة. . وأحد السائرين فى موكب الجنازة، انهمك مع زميله فى حديث طويل، عن زوجة المرحوم، التى تصغره - كثيراً - فى السن، وقد استغرق الحديث الطريق كله من المسجد، إلى سيارة نقل الموتى، المنتظرة فى آخر الشارع، وإلى جوارها ثلة من النسوة المتشحات بالسواد، وقد احمرت وجناتهن، وأنوفهن، من فرط اللطم والبكاء. . . !

مقدمات خناقة بين شابين، تبدأ بفاصل من السباب المقذع، مع حرص من الجانبين على إخفاء سبب الشجار، الذى يرجح أنه كان معاكسة، أحدهما، لأم الآخر. . ثم محاولات من بعض محترفى المصالحات لإبعاد كل منهما، داعين - إياه - للصلاة على النبى. . وعندما يطمئن أيهما إلى أن المتوسطين، قد أمسكوا بذراعى خصمه - بقوة - يبدأ فى التشنج، والترفيص، مقسمًا أنه سوف يقتله!

سيدة تكلم نفسها فى سيارتها بعنف، وهى تشير بإصبعها، فى الهواء، وتكز على أسنانها، وتبرطم بكلمات غضبى، وشتائم، مرقصةً

حاجبيها، ثم ساحبةً نفسًا مذهلاً من سيجارتها، التى توهجت مقدمتها بشدة، فيما كان جسمها يتآكل، تحت وطأة، كل هذا الاحتراق العظيم!

سيارة تقف إلى جوار كشك، ورجل بجلباب، ولاسة، يجرى ناحيتها، ليعطى سائقها الشاب الذى تبدو عليه مظاهر الثراء، شيئاً ملفوفًا فى ورقة من السيلوفان الأحمر، يرجح أنه قطعة من الحشيش، فيما السائق يمد يده إليه بكبشة من النقود، ويرفع الحشيش إلى أنفه، باليد الأخرى، ثم ينظر إلى الرجل، وهو يهز رأسه بتقدير واستحسان. . والتاجر يرفع كفيه إلى جانبى رأسه بالسلام مفتوحتى الأصابع، مردداً: «أنا محسوبك. . ألف سلامة يا باشا. . ماتغيبش والنبى»!!

سيدة سمينة سوداء تهجم على فتاة فى العشرين، تسير بصحبة رجل، لتضربها بإحدى فردتى شبشبها، بينما يتطاير أقذع السباب، من فمها المليء بالأسنان الذهبية. . وهو المشهد التقليدى الذى تعرفه الأحياء الشعبية للزَّوجة القديمة، حين ـ بعد مراقبة طويلة ـ تباغت زوجها الذى تزوج عليها مؤخراً، وتبدع فصول هذه الملحمة من الدفاع الوجودى عن حياتها!

و. . .

و«عطيات» تصافح «عبد الحليم» بحرارة، وهما يترامقان بطريقة ـ من فرط امتلائها بالمعانى ـ استعصت على وصف كنهها. .

ثم «عبد الحليم» يمضى فى طريقه متلفتًا وراءه، إلى «عطيات» التى شيعته بنظرة طويلة معبرة. . ولكنه يتوقف ـ فجأة ـ ويستدير. . ثم. .

ثم تتقدم «عطيات» نحوه، بخطوات مترددة، ما لبثت أن تسارعت، ليمسكا ـ فى النهاية ـ بأيدى بعضهما البعض. . ولتنحدر دمعة من جانب عين «عطيات». . فيما إحدى سيارات الأجرة، تمر إلى جوارهما، وقد رفع سائقها مؤشر الصوت، فى جهاز التسجيل، إلى أعلى مستوياته، محولاً سيارته إلى محطة إذاعة متحركة: «شىء دعانى أتبعك. . بدّى أتكلم معك. . وبشعورى أطلعك. . ياتصيب يا تخيب. . الهوى جسمة ونصيب»، ومجموعة من بنات الجيل الجديد، فى سيارة تقودها إحداهن، يطحن بشعورهن متمايلات الرءُوس، ويطقطقن بالسبابتين على حين تتشابك أصابع اليدين، على الطريقة الخليجية!

. . . .

وعلى بعد أمتار كان موكب كبير على وشك التحرك. .

دراجتان بخاريتان، على متن كل منهما كونستابل مرور، واللمبات الحمراء، تدور فى وميض رهيب، يزيد من وطأته تأثير عواء سرينة كل منهما، الذى يدوى فى الآفاق، وعلى الجوانب أربع سيارات بيجو ٦٠٥، يستقلها رجال بسترات غامقة، ورابطات عنق سادة، وأحدهم أخرج ذراعه من نافذة سيارته، مشيرًا إلى رتل المركبات وراءه: «وسع. السيارات تلزم أقصى اليمين». . والبوكس السماوى يحمل «چينيفر دون بروفسكى» التى لم تتوقف عن البرطمة بالإنجليزية،

صائحة: «أنا مواطنة أمريكية. . . أريد مندوبًا من السفارة. . هذا الموضوع لن يمر ببساطة. . سناتور لانتوس سيقلب الدنيا عليكم فى الكونجرس. . . آآاااااه» ثم تنخرط باكية، فيما يهتز لحمها المكتنز بقوة، وهى ترشف، فتتشهنف، فتتشحتف، ثم تعاود الصراخ من جديد، و«ويليام تالبوت» يحتضنها، مواسيًا ومهدئًا.

وإلى جوارهما جلس «سيد»، ينظر إلى سقف البوكس، بهدوء، واثقًا، من أن الأوساط الجامعية، والأكاديمية الدولية، التى بهرها من قبل، بنظريته عن علاقة الرقص الشرقى بالأنظمة الثورية فى العالم الثالث، سوف تقيم الدنيا ولا تقعدها، بقوائم توقيعات سترسلها إلى منظمات حقوق الإنسان، وبمقالات وافتتاحيات فى كل الصحف الأمريكية.

بينما كان المواطن الصالح. . «صالح محمود صالح» مذهولاً يقلب يديه، وقد أمسكت إحداهما بمسبحة من الكهرمان، وهو يحرك رأسه نافيًا، مرددًا:

«الحكومة مش ممكن تغلط. . ده ملعوب يا أخواننا. . دلوقتى ح يبعتوا حد يصلّح كل حاجة ويعتذر لنا. . وأنا من بكرة الصبح ح أروح أشكر المسئولين. . . بس والله أنا واخد على خاطرى برضه. . دى لازم غلطة. . . لالالالا. . . تغلط . . . تغلط إزاى؟!!!».

أما عبده فقد جلس على دكة البوكس إلى جوار جندى يحمل رشاشًا ـ وينظر إليه بكل يقظة ـ وهو يشعر أنه يعيش لحظة الانكشاف الكامل، وأنه

فقد قناعه إلى الأبد . . يقلب عينيه فى كل ما حوله . . زائغ النظرات، محتلاً بشعوره التقليدى الهوسى، الاستعلائى . . . مطرقًا فى الأرض لبرهة، ثم منهاراً يتأمل مشهد الشارع، والناس . . ويبتسم . . ويبكى . . ثم يضحك، مخنفراً ومتمتمًا، «جزم قديمة» . . . وعبر فتحة البوكس الخلفية، يظهر مبنى الجريدة، فيهتاج عبده، ويهز رأسه - بعنف - فى لوثة، ويشير إليه بإصبعه كمن يريد أن يطاله . . . إلى أن يتجاوز الموكب، جريدة «خوفو»، وتدريجيًا يبتعد المشهد، ويبتعد . . ويبتعد . . ويبتعد . . حتى يختفى . .

بينما يعود الهدوء إلى «عبده» تدريجيًا - أيضًا - ولكنه يستمر فى النظر ناحية المبنى بمنتهى . . منتهى الأرننه!

مانهاتن - نيويورك

٢١ من يونيو ٢٠٠١